أثر شخصية صلاح الدين الأيوبي في شعر القرنين الخامس والسادس الهجريين
– دراسة تحليلية –

The impact of Salah al-Din al – Ayyaubi's Personality on Poetry in the Fifth and Sixth Centuries of the Hegira: An Analytical Study

أ.م. د. حمه رضا حمه أمين نور محمد
أستاذ مساعد
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية
جامعة صلاح الدين / أربيل

Dr. Hamah Rida Hamah Amin Nur Mohammed
Assistant professor
College of Education for Humanities
Department of Arabic Language
Salah al-Din University, Erbil

Hamaradha.nurmohamwed@su.edu.krd

تاريخ الاستلام ٢٠٢٤/٠٤/٢٨ تاريخ القبول ٢٠٢٤/٠٦/٢٦

الكلمات المفتاحية: شخصية صلاح الدين الأيوبي، الجهاد، العدل، التسامح، شعر القرنين الخامس والسادس الهجريين.

Keywords: Salah al-Din al-Ayyubi's Personality, Jihad, Justice, Tolerance, Poetry of Fifth and Sixth Centuries of the Hegira.

ملخّص البحث

يتناول البحث أثر شخصية صلاح الدين الأيوبي في شعر القرن الخامس والسادس للهجرة، إذ إن الشعراء لاسيما في هذين القرنين تناولوا الأحداث التي كانت تمرّ بالأمة الإسلامية من خلال الاحتلال الصّليبي للأماكن المقدّسة والأراضي الإسلامية، ردحاً من الزمن إلى أن هيّأ الله لهذه الأمة من يُعيدُ لها هيبتها وكرامتها وعزّها على يد القائد المجاهد السلطان صلاح الدين.

وقد اقتضت مادة البحث أن تكون في محورين:

المحور الأول: يتناول الشجاعة –الجهاد – البطولة التي يحظى بها هذا البطل وتجسيدها في الواقع العملي بكل اخلاص وأمانة.

والمحور الثاني: يقف عند العدل – الكرم والسخاء – والعفو والتسامح عند المقدرة والوفاء بالعهد حتى مع أعدائه.

ومن هنا رأينا من الضرورة بمكان أن نقف عند هذه الشخصية الفذّة لما قدمته للعالم الإسلامي من خلال تضحياتها وبطولاتها النادرة والتي سجّل لها الشعراء في شعرهم تخليداً لمآثرها وتثميناً لصولاتها وجولاتها في سوح القتال دحراً لأعداء الإسلام وأبنائه دون خوف ووجل.

This research examines the impact of Saah al-Din al-Ayyubi's personality on poetry in the fifth and sixth centuries of the Hegira. During these centuries, poets addressed the events faced by the Islamic nation, particularly the crusader occupation of holy places and Islamic territories, They reflected on this period until Allah prepared for the nation someone who would restore its dignity, honor, and glory, namely the jihadist leader Sultan Salah al-Din.

The research focuses on two main axes:

The first axis discusses the braver, Jihad, and heroism embodied by this hero and manifested in practical reality with sincerity and integrity.

The second axis examines justice, generosity and munificence, forgiveness, and tolerance, even towards enemies, and fluffing commitments even with adversaries.

Hence, it imperative to delve into the remarkable character of Salah al-Din for his sacrifices and rare heroism, which poets immortalized in their poetry, praising his achievements and endeavors on the battlefield in defense of Islam and its sons without fear or hesitation.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين و الصلاة و السلام على خاتم النبيين سيدنا محمد و على اله وصحبه أجمعين

مما لا شك فيه أن أثر شخصية صلاح الدين الأيوبي في شعر القرنين الخامس والسادس للهجرة أصبحت عطاءً ثراً للتراث العربي، إذ قدّم ثروة أدبية غنية ووثيقة ثقافية وفكرية وتاريخية، مما دفع بالباحث أن يقف عند هذه الشخصية الّتي لا تزال منبع خير في كل ميادين الحياة للعالم الإسلامي، عقيدةً وفكراً وأدباً ولغةً وتاريخاً، كما استطاعت أن تغير التأريخ بوجه العالم ببطولاتها النادرة وعقليتها النّيرة على الرّغم من أن الباحثين من الأدباء والكتاب تناولوا هذه الشخصية في ميادين شتّى ولكن لم يجد الباحثُ أحداً منهم تناولها بهذا العنوان و بهذه الصّيغة مما أتاح للباحث أن يتناولها عسى أن يَحظى ببركتها سعادةً دينيةً ودنيويةً ويجعلها الله في ميزان

حسناته، فضلاً عن أنها أصبحت عاملاً كبيراً لهذا التراث العظيم من حيث الأدب واللغة والعقيدة والتاريخ والفكر.

ولابدّ هنا من الاشارة إلى أن طبيعة البحث اقتضت أن تتوزّع على محورين: المحور الأول: يقف عند الشجاعة – الجهاد – البطولة التي حَظيت بها شخصية صلاح الدين الأيوبي.

المحور الثاني: يتطرّق إلى العدل – الكرم والسخاء – العفو والتسامح عند المقدرة – الوفاء بالعهد حتى مع خصومه.

ومن الجدير بالذّكر هنا أن الباحث لم يكن بوسعه أن يُلِمَّ بكل ما تناوله الشعراء في هذين القرنين بشأن شخصية صلاح الدين في شعرهم، ولكنّه اكتفى أن يأخذ من هذا النبع الثري مقتطفات من القصائد والأبيات الشعرية لبعض هؤلاء الشعراء الذين أثرت فيهم شخصية هذا القائد المجاهد بهذا الشأن

التمهيد: نبذة مختصرة عن حياة السلطان صلاح الدين الأيوبي

هو أبو مظفر يوسف نجم الدين بن أيوب بن شاذي بن مروان، الملقب بالملك الناصر صلاح الدين صاحب الديار المصرية والشامية و الفراتية واليمنية؛ يرجع إلى أسرة عريقة كردية كان أجدادُه يتولّون منصب رئاسة عشيرتهم التي ينتمون إليها، واسمها (روادية) في إقليم أذربيجان من جهة آرّان و بلاد الكرج، وكانت عشيرته ترجع إلى قبيلة (الهذبانية)، إذ تعدّ هذه القبيلة من أكبر القبائل الكردية في حينها، وجميع أهلها أكراد (روادية)، وولد بها أيوب والد صلاح الدين، وشاذي أخذ ولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت، ومات شاذي بها، و على قبره قبة داخل البلد. واتَّفق أرباب التواريخ أنّ صلاح الدين مولده سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت لما كان أبوه وعمّه بها، والظاهر أنهم ما أقاموا بها بعد ولادة صلاح الدين الاّ مدة يسيرة، وأُخرجوا من تكريت الّتي ولد بها صلاح الدين، وأقاموا عند عماد الدين زنكي بالموصل، ويقول ابن خلكان: وقد سألتُ بعض أهل بيتهم هل تعرف متى خرجوا من تكريت؟ فقال: سمعت جماعة من أهلنا يقولون: إنّهم أخرجوا منها من الليلة التي ولد فيها صلاح الدين، فتشاءموا به وتطيّروا منه فقال بعضهم لعلّ فيه الخيرة وما تعلمون، فكان كما قال. ولم يزل صلاح الدين تحت كنف أبيه حتى ترعرع. ولما ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي دمشق لازم نجم الدين أيوب خدمته وكذلك ولده صلاح الدين، وكانت مخايل السعادة عليه لائحة، والنجابة تُقدّمه من حالة إلى حالة ونور الدين يرى له ويؤثره، ومنه تعلّم

صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد في أمر الجهاد حتى تجهّز للمسير مع عمّه شيركوه إلى الديار المصرية، وبعد ما استقرّ في مصر و استلم مناصب حساسة ظهرت فيه آثارً حميدة تبشّر بالخير، بحيث أصبح موضع آمال المسلمين في استرجاع جميع الأراضي الإسلامية والأماكن المقدسة وتحريرها من أيد الغاصبين وقد تحقّقتْ تلك الآمال في ظلّ حكمه، فمن ذلك فتح حطين وعسقلان وغزّة وما حولها، وكذلك فتح بيت المقدس(١).

وكان السلطان صلاح الدين محبّاً للعلم والعلماء، تلقّى علومه ومعارفه على جماعة من كبار علماء وشيوخ عصره كالإمام أبي الحسن علي بن ابراهيم بن مسلم الأنصاري، والعلاّمة النحوي أبي محمد عبد الله بن يري (ت ٥٨٢ هـ)، والشيخ أبو الفتح محمود بن أحمد بن علي المعروف بابن صابون (ت ٥٨١ هـ)، والمحدّث الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد الأصفهاني (ت ٥٧٦ هـ)، والفقيه كأبي الطاهر اسماعيل بن مكي بن عوف (ت ٥٨١ هـ)، والشيخ أبي المعالي مسعود بن محمد النيسابوري (ت ٥٧٨ هـ)، والأمير أبي المظفر أسامة بن منقذ الكناني، والفقيه المؤرخ بهاء الدين أبي المحاسن يوسف المعروف بابن شداد(٢) . ومما يجدر ذكره أنه تلقّى ثقافته الأولى في مدينة بعلبك التي قضى فيها فترة صباه، وقد ظهر لديه الميول الدينية باكراً(٣). كما أنّه يبدي الإكرام والتقدير والإجلال لأهل العلم والشعراء والأدباء، على الرغم من أنّ صلاح الدين لم يكن لديه ملكة شعرية إلاّ أن الشعر من أحب الفنون الأدبية في نفسه، ووُصف كونه ناقداً خبيراً به(٤). يستحسن الأشعار الجيدة ويحفظها لاسيما الحماسي منها ويردّدها في مجالسه(٥). ومن الدواوين الشعرية التي كان مغرماً بها ديوان مؤيّد الدولة أسامة

---

(١) وفيات الأعيان وأبناء الزّمان: ٣/ ٤٨١، ٤٨٣، لأبي العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان.

(٢) ينظر: التكملة لوفيات النقلة، المنذري: ١/ ١٨٣، ١٨٤.، مرآة الجنان: ٣/ ٣٣٣، ٣٣٤.، طبقات الشافعية الكبرى: ٢٤/٣، ترويح القلوب في دكر ملوك بني أيوب: ٦٨.

(٣) ينظر: الحكم الأيوبي في الشرق الأوسط: ١٢٧.

(٤) ينظر: خريدة القصر: ٦، ق٣/ ٧٨.

(٥)ينظر: مرآة الجنان وعيون اليقظان في معرفة ما يعبّر عن حوادث الزّمان، أبو محمد بن عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي، (ت ٦٥٤هـ)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الركن ، الهند، ١٩٥١: ٣/ ٣٥١.

بن منقذ وكان لشغفه به يفضله على سائر الدواوين(١). ولا يخفى علينا أن مساهمة الأيوبيين في الحياة العلمية وتشجيعهم للعلم جاءت من إيمانهم بالدين الإسلامي الذي حثّ على طلب العلم، كما أنّ الأيوبيين وفي مقدمتهم صلاح الدين يعدّ مؤسّس الدولة الأيوبية في مصر، فقد كانت مجالسه حافلةً بأهل العلم والفضل منزهةً عن اللّهو والهزل(٢). وكان محباً للعلم والعلماء حريصاً على مصاحبتهم ودعوتهم إلى مجالسه الخاصة للاستماع إليهم والمشاركة معهم والتداول في مختلف العلوم في غاية التواضع. ولم يكن صلاح الدين قائداً عسكرياً ومجاهداً في ساحات الوغى وحسب بل كان رائداً من رواد العلم، نعته الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله بالعالم العادل المجاهد المرابط(٣).

وتوفي صلاح الدين بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنه تسع وثمانين وخمسمائة(٤).

بعد هذه الوقفة المختصرة التي تحدّثنا فيها عن حياة السلطان صلاح الدين ننتقل إلى المهمة التي نحن بصددها. فكلّما نقرأ كتاباً أو موضوعاً يتحدث عن صلاح الدين الأيوبي تشدّنا تلك القراءة إلى قراءة أخرى حول شخصيته، إذ وجدنا كثيراً من البحوث والدراسات تناولت شخصيته من الناحية التاريخية من حيث السياسة ومهاراته في تدبير الأمور الإدارية والجهادية. ومن هنا رأينا من الضرورة بمكان أن نتناول هذه الشخصية الفذّة في بحث أدبي يليق بها، وجدنا ان الطريق ممهّدٌ لهذه المهمة وذلك من خلال تأثير شخصية صلاح الدين الأيوبي في نفوس الشعراء، ممّا أدّى بهم أن يتناولوها بالمدح والثناء في قصائدهم وأبياتهم الشعرية تعبيراً عن وفائهم وحبّهم لها، إذ ترك هذا التأثير في شعر هؤلاء الشعراء تراثاً أدبياً وثروة لغوية ثرية، كما نجد ذلك من خلال تلك القصائد والأبيات الشعرية التي كانت مبثوثة في ثنايا المصادر والمراجع و دواوين الشعراء، وهنا نحن نتشرف بهذا التراث الأدبي الثري عسى أن نقدم شيئا من هذا العمل المتواضع خدمة لهذا التراث العظيم ووفاءً لهذا القائد العظيم الذي غيّر التأريخ بوجه

(١) ينظر: سنا البرق الشامي اختصار البنداري: ق١ /٢٢٨، مرآة الزمان لابن الجوزي: ٨، ق١/٤٢٧.

(٢) سنا البرق الشامي اختصار البنداري: ق١ /٥٦.

(٣) ينظر: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب: ١٨٨.

(٤) وفيات الأعيان: ٣/ ٥١١.

العالم بما أرجع للإسلام عزه وهيبته ومكانته، وحقوقه المسلوبة وبهذا أصبحت الأمه الإسلامية بكافة أطيافها ومذاهبها مديونة لصلاح الدين الأيوبي بشكل عام ونحن ككرد بصورة خاصة، فإذن مهما قدّم غيرُنا ونقدمه نحن لهذا القائد قليلٌ بحقه، والأقلام عاجزة عن التعبير عنه وهذا ليس ادّعاءً منّا ومبالغة بل يعترف بذلك حتى أعداء صلاح الدين قبل أصدقائه.

ولابدّ هنا من الإشارة إلى أن الموضوعات التي يتناولها البحث تكمن في محورين اثنين:

المحور الأول: الشجاعة – الجهاد – البطولة

المحور الثاني: العدل – الكرم والسخاء – العفو والتسامح عند المقدرة – الوفاء بالعهد حتى مع أعدائه.

المحور الأول: الشجاعة والجهاد والبطولة ، لم تكن هذه الصفات شيئاً غريباً لدى صلاح الدين بل كانت هي الهدف الأسمى الذي يعمل من أجله منذ استلامه مقاليد الحكم واستلام زمام الأمور الملقاة على عاتقه، فهو يسعى بكل طاقاته أن يحارب أعداء الله ويحرّر أرض المسلمين من دنس الغزاة والمحتلين لتكون كلمة الله هي العليا ممّا أدّى بالشعراء أن يعبّروا عن ذلك الموقف من خلال قصائدهم وأبياتهم الشعرية، وكانت بطولة صلاح الدين ملهمة لهؤلاء الشعراء والأدباء الذين صوّروا في أدبهم وشعرهم ملحمته الفروسية من جهاده المقدّس ضدّ الصليبيين لاسيما بعد انتصاره في فتح حطين وبيت المقدس وحلب مما أدى إلى وجود تيار شعري وأدبي يعتدّ بالقوة والرّصانة، وقد تغنّى الشعراء بهذه الانتصارات مصوّرين صلاح الدين رمزاً للبطولة والشجاعة والعزة والشهامة للأمة الإسلامية وأبنائها(١)، وقد جسّد الشاعر ابن سناء الملك هذه البطولة في قصيدة يمدح فيها صلاح الدين ويهنّئه بفتح حلب، منها إذ يقول:

بدولة الترك عزّتْ ملّةُ العربِ وبابن أيـوبَ ذلّتْ شيعـةُ الصُّلُـب

وفي زمانِ ابن أَيوبَ غَدتْ حلبٌ من أَرض مصرَ وعادتْ مصرُ من حلبِ

ولابن أَيّوبٍ دانتْ كُلُّ مملكـةٍ بالصَّفْح والصُلحِ أَو بالحرْبِ والحَرَبِ

مظفَّرُ النَّـصرِ منعوتٌ بهمّتِهِ إلــى العزائِم، مدلولٌ علـى الغَلَـبِ

والدَّهرُ بالقَدرِ المحتومِ يَخْدُمُـه والأَرضُ بالخلقِ، والأَفـلاكُ بالشُّهـب

(١) ينظر: مجلة المورد: ١٩٧، المجلد السابع، العدد الثاني، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

فتحُ الفتوحِ بلا مَيْنٍ وصاحبُه مَلِكُ الملوكِ ومَوْلاه بِلا كَذِبِ
تَهنَّ بالفتحِ يا أَوْلَى الأَنامِ بـه فالفتحُ إِرْثُك عَنْ آبائِك النُّجَبِ
وافخَرْ فَفَتْحُك ذا فخرٌ لمفتخرٍ ذُخْرٌ لمدَّخِرٍ، كسبٌ لمكتَسبِ
بكَ العواصمُ طَابَت بعدما خَبُثَتْ بِمَالِكِها ولولاَ أَنْتَ لم تَطِـبِ
فليت كـلَّ صباح ذرَّ شَارقُه فداءُ ليلِ فَتَى الفتيانِ في حَلَبِ(١)

لقد عبّر الشاعر عن بطولات صلاح الدين الأيوبي وشجاعته في جهاده المقدس ضدّ الطغاة المحتلين أرض الإسلام من الصليبيين الغزاة. اذ إنّ العرب كانوا يرضخون تحت الحكم الصّليبي ردحاً من الزمن، و لم يكن بوسعهم أن يحرّكوا ساكناً، وقد أحسّوا بالذُّل والهوان، وكانوا ينتظرون بفارغ الصبر من يخرجهم ممّا هم فيه، إلى أن منَّ اللهُ عليهم بالفرج من قبل القائد المجاهد من غير عرقهم ودمهم العربي ألا وهو صلاح الدين الأيوبي الكردي الذي أرجع إليهم العزّة والمهابة والقوّة وأرضهم المسلوبة، من خلال دحر أعدائهم الذين كانوا جاثمين على رقابهم ومقدّساتهم، وقد أشار الشاعر في قصيدته إلى فتح مدينة حلب من أيد الغاصبين، كما عبّر عن هيبة صلاح الدين في كسر هيبة أعداء الإسلام وأبنائه، إذ استطاع أن ينتزع كافة الأراضي المغتصبة من أيدي الغاصبين بشتّى الوسائل المتاحة أمامه، كما أشار أيضاً إلى أنّه لم يكن وحيداً في جهاده المقدس بل أمدته السماء بجنودها البواسل من الملائكة وحتى بالنجوم والكواكب، وكذلك الأرض بجنودها، وكأنها الطبيعة بحد ذاتها تشارك في هذا الفتح المبين الذي تولّى قيادته هذا البطل المجاهد صلاح الدين الأيوبي.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الشعراء قد هنأوا السلطان صلاح الدين بمناسبة فتح حلب، ومنهم القاضي محيي الدين بن زكي الدين بأبيات منها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفرٍ مبشّراً بفتوح القدس في رجَبِ(٢).

(١) ينظر: ديوان ابن سناء الملك: ١، ٤.

(٢) ينظر: مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب: ١٤٥/٢، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت ٦٩٧هـ)، حققه وعلّق على حواشيه وقدم له الدكتور جمال الدين الشيال، المطبعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٥٧م المختصر في أخبار البشر: ٣/ ٦٦.

فقدّر الله أن يأتي فتح القدس في هذا الشهر المبارك (رجب) السابع والعشرين منه، وكان يوم الجمعة وفيه ليلة الأسراء(١). وإن دلّ هذا على شيءٍ فإنما يدلّ على فراسة الشاعر المؤمن المتّقي. وهذا ما يذكّرنا بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿واتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾(٢). و قول النبي صلى الله عليه وسلم ((إتقوا فِراسة المؤمن, فإنه ينظر بنور الله)) (٣).

ومن البديهي أنّ الاسهاب في الحديث عن قصّة البطل المظفّر صلاح الدين الأيوبي لابدّ وإن يسبقه ايضاح لحجم الانجاز الذي نجحت هذه الشخصية في تحقيقه، وبالتالي فإنّ القيمة الحقيقية لذلك الانجاز إنما تتجلى عند مقارنة الوضع المتردي الذي كانت الأمور قد آلَتْ اليه قبل ظهور صلاح الدين، بالحال الذي تبدّل نتيجة الصحوة التي قادها ذلك القائد الفذّ. ومن الضّروري معرفة إلى أيّ حدٍّ ترديتْ الأوضاع بالأمة حينذاك حتّى يكون هناك إدراكٌ دقيقٌ لمدى احتياجها إلى شخصية صلاح الدين الأيوبي لإنقاذها مما كانت عليه(٤).

وكذلك للشاعر ابن سناء الملك قصيدة أخرى ينوّه فيها بجهاد صلاح الدين الأيوبي وبطولاته وعزمه القوي في دحر أعداء الامّة، والسّعي في تحقيق أمنياته وآماله بعقليته النّيّرة وحكمته البالغة، منها قوله:

ومن شادَ داراً للجهادِ فأَصْبَحتْ بها الرُّمْح يَبْنـيَ والحُسَـامُ يُهَنْدِسُ
ويرسلُ عزماً للأَعَـادِي مَبكّراً فيأْتيه فَتْـحٌ للأَعَـادِي مُغَلّسُ
لراحتـه تُحنـى القِسيُّ وبعضُها هِـلالٌ لَهُ فـوقَ السَّمـاءِ مُـقَـوَّس
يُرَى جَذِلاً في حَوْمَةِ الحرب ضَاحِكاً فلا القلبُ منخوبٌ ولا الوَجْهُ مُعْبِـسُ
أَغَـارَ عَبوسَ الوجْهِ فيها جوادُهُ ومِـنْ عَـجَـبٍ أَنَّ الجوادَ يُـعبّس
تـطـيـرُ إِلَيْه طـالبـاتٍ أَمَانَـه ومـعـتـذراتٍ مـنـه أَيْـدٍ وأَرْؤُسُ
وفـي كفِّه مـاضٍ مَـضـى وكَـأَنَّه من الْبَرقِ يَجْنـي أَو مِنَ النَّارِ يُقْبِسُ

(١) ينظر: مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب: ١٤٥/٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.
(٣) ينظر: سسن الترمذي :٨٩٣ ، رقم الحديث : (٣١٣٨)
(٤) ينظر: فجر أمة صلاح الدين الأيوبي، الدكتور ياسر نصر، مكتبة الوفاء، ط١، دار النشر للجامعات، صر، القاهرة، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م: ٢٩.

.....

.....

لأَعدائِك الْوَيلُ الطَّويـلُ أَمَا دَرَوْا بـأَنَّك شَمْسٌ نُورُها لَيْس يُطمَس

ستَفْرِسُهم فرسانُك الأُسْدُ إِنَّهم بِسعدك تفرى للأُمورِ وتفرسُ

وتملكُهم طوعاً وكَرْهاً وأَرضَهم لأَنَّك أَقوى بِالمِـرَاسِ وَأَمْرَسُ

ويُخْلىَ بسيفٍ من يمينك ظالِمٌ ويُجْلَى بصبحٍ مِنْ جبينك حِنْدِسُ(١)

لقد أشاد الشاعر ابن سناء المُلك في هذه القصيدة بجهاد صلاح الدين الأيوبي وبطولاته وشجاعته وعزمه القوي في بناء صرخة مدوية لترهيب أعداء الإسلام من خلال ما يمتلكه من عدّة وعتاد بحيث لم يكن بوسع أعدائه المقاومة والثبات أمام ضرباته القوية والموجعة. ومن الجدير بالذكر أنّ فرحه دائماً يكمن عندما يصبح فارساً مغواراً في سوح القتال، كما يُحسُّ بالنّشوة إذا وجد أعداءَه في حالة الذُّعر والذّل والهوان مما يجعلهم ان يلجؤوا إلى الاستسلام وطلب الأمان حفاظا على أرواحهم، لأنهم كانوا على يقينٍ تامٍ لم يكن بمقدورهم مواجهة القوّة الضاربة التي كانت قلوبهم تنبض بالشهادة أو النصر إيماناً بقضيّتهم المشروعة ممّا جعل بالمقابل أنّ قوة أعدائهم ستتهاوى وتسقط أمام صولاتهم و جولاتهم وضرباتهم القاسية والمدمّرة، والسبب في ذلك يرجع إلى أنّ معركتهم ضدّ القوّة الإيمانية لم تكن مبنية على الحقّ بل كانت مبنية على الباطل ونشر الفساد في الأرض، ولهذا كان حظُّهم دائماً في المعركة الفرار والهزيمة أمام القوة المؤمنة بقضيتهم المشروعة التي كانوا يناضلون من أجلها.

ولابدّ هنا من الإشارة إلى أن فروسية صلاح الدين وجنده لم تكن مجرد شجاعة ومهارة في القتل والسلب والنهب كما هي عند الصليبيين بل كانتْ فروسيتهم ذات سمات وشمائل تنبع من القيم الروحية والمشاعر الانسانية التي صنعتها حضارة الإسلام والتي تربّى عليها أبناء الأمة الإسلامية(٢).

وتتوالى قصائد الشاعر ابن سناء المُلك في نشوة الانتصار تلو الانتصار لهذا القائد البطل سلطان صلاح الدين الأيوبي على فلول القادة الصليبيين وجنودهم، منها: اذ يقول:

---

(١) ديون ابن سناء المُلك: ١٧٤، ١٧٥.

(٢) ينظر: معارك العرب ضد الغزاة: ٢٩. وينظر: مجلة المورد: ٦، المجلد الثامن عشر، العدد الثاني، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٦ م.

لسـت أدري بـأي فتـحٍ تُهنّأ يا منيل الإسـلام مـا قد تمنّـى

أَنُهنّيـك إذ تملّكـتَ شاماً أَم نُهنّيك إذ تملّكتَ عَـدْنا
مَلِكٌ جُنـدُه ملائكــةُ اللَّـ ـه فُرادى جـاءَت إليه ومَثْنـى
لم تقـفْ قطُّ فـي المعارِك إلاَّ كنت يـا يوسفُ كيوسفَ حُسْنا
تجْتَني النَّصْر من ظُباكَ كأَنَّ الـ ـغَضْبَ قد صحَّفوه أَو صَار غُصنا
حملوا كالجبـال عِظْماً ولكن جعلَتْها حَـمْلاَتُ خيلك عِهْنَـا
جمعوا كيدَهم وجاءُوك أَركـا ناً فمـن قدَّ فارسـاً هدَّ رُكنـا
خانهم ذلك السـلاحُ فلا الرُّمـ ـحُ تَثَنَّــى ولا المـهنَّدُ طنَّـا
أَشجعُ القوم فيهمُ جـاعلُ الذِّرْ عِ هُروبـاً أَو الفرارِ مـجَنَّا
وجَرَتْ مِنْهُم الدِّمـاءُ بِحارا فجَـرَتْ فوْقَها الجزائُر سُفنا
ظلَّ معبودُهم لديك أَسيـراً مُسْتَضَاماً فاجعل له النارَ سِجْنا
والمليكُ العظيم فيهمْ أَسيـرٌ يتَثَنَّــى فــي أَدهمٍ يتثنَّــى
كم تمنَّى اللقـاءَ حتــى رآهُ فتمنَّــى لـو أَنَّه ما تَمنَّــى
واللَّعين الإِبْرَنْس أَصبح مذبو حـاً تمنَّى لم يَعْدِم اليومَ يُمنا
أَنت ذكّيْتَــه فوفَّيـتَ نذراً كنــت قدَّمتـه فجُوزيتَ حُسْنا(١).

لقد نوّه الشاعر في هذه القصيدة بنضال صلاح الدين الأيوبي في جهاده المقدس ضدّ المحتلين الغاصبين للأراضي الإسلامية، ويهنئه بالفتوح ويذكر وقعة حطين، وقتل البرنس قائد الصليبيين. لو تعمّقنا في هذه القصيدة ووقفنا عند المفاهيم التي تضمّنتها لوجدنا أنّ الجهادَ مع أعداء الدين لم يثمر ثمرة مرجوة الّا بعد الاستعداد له، والنّهوض بتوفير المستلزمات المطلوبة له حتى تأتي ثماره على ما يرام، كما أتتْ ثماره من قبل البطل صلاح الدين الأيوبي في معركته المقدّسة مع المحتلين للمقدّسات الإسلامية، إذ إنّه لم يخضْ معركةً الّا أن يهيء لها القوّة ورباط الخيل، كما أنّه قد استعدّ لها فعلاً وأخذ بالأسباب المتاحة قبل أن يشنّ هجوماً على أعدائه مما أدّى إلى أن يؤثّر في نفوس الشعراء فتناولوه بالمدح والثناء من خلال قصائدهم وأبياتهم الشعرية، والوقوف عند دقائق الأحداث التي كانت تجري في سوح القتال والانتصارات الباهرة التي كانت

(١) ديوان بن سناء المُلك: ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٣.

تتحقّق على أعداء الأمة الإسلامية وأبنائها من خلال نضاله وتضحياته النادرة، ولذلك وصف الشاعر القائد المجاهد صلاح الدين بالصفات الحميدة والقِيم النبيلة والتشبيهات الرائعة التي تليق بشخصيته الفذّة، منها تشبيهه بالنّبي يوسف –عليه السلام– من حيث الحكمة والرّزانة والأمانة والعفّة والعدل والعفو والتسامح عند المقدرة. كما أن الشاعر قد أضفى على أعدائه سمة العار والذّل والهوان والفرار من المعركة، بما في ذلك أنّ قائدهم البرنس الذي كان موضع أمالهم قد وقع أسيراً في قبضة المجاهدين، وينتظر الرحمة والرأفة منهم، فهو لم ينفعه ما كان يمتلكه من عدّةٍ وعتاد أمام ضربات المجاهدين وجرأة قائدهم البطل صلاح الدين الأيوبي. فكان مصيره الموت المحتّم وهدر دمه جرّاء ما ارتكبه من الجرائم البشعة في قتل النساء والشيوخ والأطفال والاستخفاف بالنّبي محمد – صلى الله عليه وسلم – (١). وبهذه المناسبة يقول الدكتور ياسر نصر ((فيما يخصّ بالذكر ما جرى من استعدادات قبل معركة حطين، فذلك لأن تلك المعركة وما سبقها وما تلاها تعدّ جميعاً مبعثاً على العزّة والأمل في اعادة وضعنا إلى ما كان عليه بعد الانتصار في تلك المعركة. وكذلك فإنّ ذكر ما جرى في موقعة حطين يؤكّد أنّه سيأتي اليوم الذي تحقّق فيه انتصاراً مثل الذي حقّقناه من قبل، ونتخلّص فيه من كل الغاصبين لأرض الإسلام)) (٢). وفي هذا السياق نستلهم من قول الرسول الأكرم محمد – صلى الله عليه وسلم –، ((لا تقوم الساعة حتّى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتّى يختبئَ اليهوديُّ مِن وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر يا مسلم، يا عبد الله هذا يهوديٌّ خلفي، فتعال فاقتله، إلّا الغرقد فإنّه من شجر اليهود)) (٣). اذن فإنّ نوعية الانتصار الذي حدث في حطين لا يقتصر حدوثه على ذلك اليوم، ولا على ذلك الموقع، فإنما هو النوع الذي أنبانا نبيّنا الأكرم – صلوات الله وسلامه عليه –، بضرورة حدوثه في لحظة مستقبلية قبل قيام الساعة. ولكن هنا تطرح الأسئلة المهمة نفسها ماذا سيكون موقفنا من المعركة المنتظرة؟ هل نحن على استعداد للمشاركة فيها ضدّ أعداء الدين؟ كما خاضها سابقاً القائد صلاح الدين الأيوبي(٤): الذي كان يستلهم انتصاراته من آي الذكر الحكيم في قول الله – جل ثناؤه – ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن

(١) ينظر: وفيات الأعيان: ٣/ ٤٩٨، ومفرّج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢/ ١٩٨.
(٢) ينظر: فجر أمّة صلاح الدين الأيوبي: ١٩١.
(٣) صحيح مسلم: ١١٩٥.
(٤) ينظر: فجر أمة صلاح الدين الأيوبي: ١٩١، ١٩٢.

قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ...﴾ (١).

وعند التدقيق في الألفاظ التي حوتها الآية الكريمة نجد أن الإعداد للمعركة لا يكون بتوفير ما تيسّر من القوى المادية فقط، وإنّما هو إعداد إيماني في المقام الأول، يصحبه استحضار لأسباب الانتصار. وأحد هذه الأسباب هو مواجهة العدوّ بجسارة بحيث تقع فيه الرّهبة من المؤمنين، وبهذا أصبحت الآية القرآنية نبراساً لصلاح الدين الأيوبي، ومن خلالها حقّق الانتصارات الباهرة على أعدائه(٢).

وهنا يعيد للأذهان فكلّما نتناول او نستشهد بشعر ابن سناء الملك في ما يخصّ التعبير عن عواطفه وصدق إحساسه تجاه القائد صلاح الدين الأيوبي يشدّنا هذا الإحساس إلى أن نقف عند بقية القصائد والأبيات الشعرية الأخرى التي عبّر فيها عن بطولات وتضحيات هذه الشخصية الفذة في تاريخ الأمة الإسلامية، ولهذا رأينا من الوفاء لموقفه في سرد الأحداث على حقيقتها وبما هو يليق بنضال البطل صلاح الدين، وتهنئته بعد انصرافه من الكرك وفتح نابلس الاستشهاد بهذه القصيدة التي تعدّ هي وغيرها من قصائده سجّلاً أدبياً وتاريخياً لما مضى، حفاظا على تراث الامة الإسلامية من الضياع، كما تعدّ دُروساً وعبراً للأجيال القادمة في النهوض والإحساس بالمسؤولية التي تقع على عاتقهم في الدفاع عن دينهم و مبادئ عقيدتهم السامية، منها، إذ يقول:

إذا راســلَ الأَعـداءَ يوماً فإنَّما ... كَتائِبُه كالكُتْب والخيلُ كالرُّسْل
له صارِمٌ يَشْفي به الديـنُ صـدرَه ... ويُنجِزُ وعدَ النَّصر مِنه بِلاَ مَطْل
ولَمْ أَرَ أَرضاً جادَها الغيـثُ قبلَها ... وتُصبحُ تشكو بَعده غُلَّةَ المَحْـلِ
وما شَرِقُوا بالمـاءِ والرّيـق إذ رَأَوْا ... جيوشَك لكن بالفوارِس والرَّجْـلِ
شَبَبْتَ وقودَ الحربِ بالبيضِ والقنـا ... عليهم فقد أَضْحـت دماؤُهُمُ تَغْلِي
أَبَدْتَ النَّصَارَى واليهودَ بمعرَكٍ ... وما جـاءَ هذا قطُّ في سَالِف النَّقْـلِ
ولم يبقَ إلاَّ من سبَى الجيشُ منهمُ ... وإن كان يَسْبي الجيشَ بالحدقِ النُّجلِ
عذارى أَسارى كُبِّلت بِشعورها ... فَجرَّحها في السَّاقِ والمعصمِ الْعَبْلِ

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

(٢) ينظر: فجر أمة صلاح الدين الأيوبي: ١٩٢.

وقدْ شُغِلتْ عن أَهْلِها بإِسَارها وأَنتَ بشكرِ الله في أَشْغَل الشُّغْل
تكبّرُ اللهَ فـي الجامِـع الَّذي جمعـتَ بين الفريضَـةِ والنَّفْـل
وصليـتَ جمعـةً بجماعـةٍ تُناديك للإِسلامِ يـا جَامِعَ الشَّمْـلِ
وعُدْتَ بفضل اللهِ للخلق سَالِماً وأَيّ زمـانٍ لم تَعُد فيـه بالفَضْـلِ(١).

ولو نظرنا نظرة تعمّق في هذه القصيدة للشاعر ابن سناء المُلك ووقفنا عند ما حوته من المفاهيم القيّمة لوجدنا أن الشاعر قد وفى بما هو عليه من رصد الأحداث التي كانت تجري في سوح القتال بمنتهى الدقّة والصدق والأمانة على يد البطل المجاهد صلاح الدين الأيوبي في الدفاع عن حرمة الإسلام وأبنائه وأرضهم المغتصبة من قبل الصليبيين رَدْحا من الزّمن و كيف استطاع أن يرجعَ إلى الأمة الإسلامية هيبتها وقوّتها وعزّتها بتحرير أرضهم المسلوبة من قبل العدوّ الغاصب بالتّوكل على الله جَلّ ثناؤه وكيف أذَلّ مَنْ تلطختْ أياديهم القَذِرَةُ بدماء المسلمين من القادة الصّليبيين الذين جُرِّدوا من كل القيم الانسانية النبيلة مما ادّى بهم إلى قتلهم وابادتهم واسرهم وتشريدهم وتطهير الأراضي الإسلامية المقدسة وتحريرها من قبضتهم، وقد أشاد الشاعر بهذه البطولات النادرة في أروع صورها، وأضفى عليها هالةً من التمجيد و الثناء والمدح لصانعها البطل صلاح الدين الأيوبي الذي أدخل السّرورَ والبهجةَ في قلوب العالم الإسلامي من خلال سواعده القوية في تحرير أراضيهم المسلوبة من أيد أعدائهم الغاصبين وكسر شوكتهم وإذلالهم وقتلهم وإبادتهم وأسرهم مما جعله أن يبدأ بالثناءِ والتّمجيد للخالق الّذي أمدّه ووفّقه لإنجاز ما كان يتمنّاه أن يفعله، وحقّاً لقد حقّق ما كان يتمناه بمدّ عون من إله لا تنتهي خزائنه على عباده المخلصين بفضله ومنّه عليهم في إنجاز مسيرتهم المقدّسة.

وكان لهذا التحرير رنَّةٌ كبيرة في صدر العالم الإسلامي كلّه، وظفرت هذه المعركة الخالدة بنصيب موفور من الشعر لم تظفر به منذ شبّت الحروب الصّليبية إلى أن وضعتِ الحربُ أوزارها، ذلك أنّ طرد الفرنج من القدس كان هدفَ صلاح الدين الأوّل، لأنّه متى طردهم من البلاد التي أتوا من ورائها لامتلاكها، فقد هانت عليه بقية الإمارات اللّاتينية(٢).

ولا تزال قصائد الشّعراء تترى بمناسبة تحرير الأراضي الإسلامية من يد الغاصبين بيد فارس الأمّة صلاح الدين الأيوبي الذي لم يتوان يوماً من الأيّام عن أداء الأمانة الّتي قطعها

(١) ديوان ابن سناء المُلك: ٢٢٣ ، ٢٢٥.
(٢) ينظر: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية: ٤٥٩.

على نفسه والمضي قُدماً لإنجاز هذه الأمانة بكلِّ شجاعةٍ وبسالةٍ بما يُرضى الله – سبحانه وتعالى – وإنقاذ المسلمين من محنتهم الّتي كانوا يعانون منها سنين طوال من جرّاء غطرسة عدوّهم الغاشم الذي لا يعرف الّرحمةَ والرأفةَ إلى أن هيَّأ الله لهم من ينقذهم من محنتهم و يرجع اليهم عزّهم وكرامتهم من خلال نضاله و ملاحمه البطولية وشجاعة جنوده البواسل، مما أدّى ذلك بالشعراء المخلصين أن يعبّروا عن تلك الأحداث والملاحم من خلال قصائدهم وأبياتهم الشعرية تمجيداً وتثميناً لبطولات هؤلاء المجاهدين وقائدهم الشّجاع صلاح الدين الأيوبي الذين سطّروا تلك الملاحم بكلّ عزم واقتدار، ممّا أثر ذلك في نفس الشاعر بهاء الدين أبو الحسن على الساعاتي أن يمدح السلطان صلاح الدين الأيوبي في قصيدة بمناسبة فتحه طبرية، منها قوله:

جلّتْ عزماتُك الفتحَ المُبينا فقد قرّتْ عيونُ المُسلمينا
رَدَدْتَ أخيذَةَ الإسلام لمّا غدا صرفُ القضاءِ بها ضَمينا
وهانَ بكَ الصّليبُ وكان قُدْماً يَعزُّ على العوالي أن يهونا
يُقاتلَ كلُّ ذي مُلكٍ رياءً وأنتَ تُقاتلُ الأعداءَ دينا
فيا لله كم سرَّتْ قلوباً ؟ ويا لله كم أبكَتْ عيونا؟
وما طبريةٌ إلّا هديٌّ تَرَفَّعَ مِن أَكُفِّ اللّامسينا
فَضَضْتَ خِتامها قَسراً ومَن ذا يَصُدُّ اللَّيثَ أن يَلجَ العَرينا؟
قَضَيتَ فريضةَ الإسلام منها وصدَّقتَ الأماني والظُّنونا
تَهُزُّ معاطِفَ القُدسِ ابتهاجاً وتُرضي عنك مكّةَ والحُجُونا
فلَو أنَّ الجهادَ يُطيقُ نُطقاً لنادتْكَ أدخُلُوها آمنينا
فقلبُ القدسِ مسرورٌ ولَولا سُطاكَ لكانَ مُكتَئباً حَزينا
فكنتَ كيوسفَ الصِّديق حَقّاً لَه هَوَتِ الكَواكِبُ ساجِدينا(١).

لا بُدَّ هُنا مِن الإشارة إلى حرص الشعراء في رصد الوقائع وتسجيلها في قصائدهم والحفاظ عليها من الضِّياعِ فهو خيرُ شاهدٍ على أنّ في هذه الأمّة رجالاً يُحسّون بالمسؤولية الكبيرة على عاتقهم ويؤدُّون أَمانتهم بكلِّ صِدقٍ وإخلاصٍ، فما جاء في قصيدة الشاعر ابن

(١) ديوان ابن الساعاتي، بهاء الدين أبي الحسن الخراساني، تحقيق ونشر أنيس المقدسي، الطبعة الامريكي، بيروت، ١٩٣٩م: ٢/ ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨.

الساعاتي فهو خيرُ دليلٍ على ذلك، إذ إنّ الشاعر قد مَجّدَ السلطان صلاح الدين الأيوبي، وألقَى الضوء على إنجازاته الباهرة لاسيما في دحر أعداء الأمة الإسلامية والفتك بهم وتحرير أرضهم وأماكنهم المقدّسة من خلال تضحياته ونضاله المرير حتى تكونَ كلمةُ الله هي العُليا، فنجده أن يدَ الله ترعاه و تحرسُه وتزدادُ مِن قوته وجرأته على تحمل أعباء ما كان يناضل من أجله. كما أن الشاعر قد أضفى عليه صفات حميدةً تليق بشخصيته الفذّة، وأتى له بتشبيهاتٍ رائعةٍ كتشبيهه بالنّبي يوسف – عليه السلام – الذي هوتْ له الكواكبُ كما هوت وخرّتْ له القادةُ الصليبيون أذلاّءَ، وكما أن سيفه على أعناقهم لأخذ الثأر مِنهم من جرّاء ما ارتكبوا مِن جرائمهم البشعة في قتل المسلمين وابادتهم. وهذا ما يذكرنا:

أنّ حرصَ الشعراء والأدباء على تخليد صورة الأمجاد من خلال قصائدهم وأبياتهم الشعرية ورفد الحركة الأدبية والفكرية بروافد الفكر الإسلامي الخلاّق وتغذية حياة الأمة الإسلامية بالزّاد النّقي هذا كله ساعد على أن يفرض المسلم وجوده على تلك الأمم التي فرضت نفسها على العالم الإسلامي واحتلّتْ أرضهم لفترة من الزّمن واستباحوا الحضارة الإسلامية وحاولوا طمس معالمها، فهذا دفع بالشعراء أن يعبّروا عن ذلك الواقع إلى جانب التعبير الوجداني من خلال قصائدهم وأبياتهم الشعرية التي أشادتْ بنضال المجاهدين و تسجيل معاركهم الضارية، ومجد مواقع الصمود، ولعلّ كلمةَ صلاح الدين المشهورة التي أكّدَ فيها دور الأدب في المعركة، إذ قال: إنّني لم أنتصر بسيفي وإنما انتصرتُ بقلم القاضي الفاضل، وهي كلمةٌ لها مدلولها المشهود في تسيير واقع الأحداث، و لها وقعها الفاصل في الدور الحماسي الذي أدّاه الأدباء والشعراء(١). فإن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ ذلك على الدور القيادي الذي نهض به الأدباء والشعراء على تسجيل الأحداث والملاحم البطولية وتصويرها تصويراً دقيقاً تخليداً لدورهم البطولي في ساحات الوغى ضدّ أعدائهم، كما سجّل الشاعر ابن الساعاتي تلك الملاحم لصلاح الدين الأيوبي في هذه القصيدة.

ولا تزال نشوة النصر تفتح طريقها نحو تحرير بقية الأراضي الإسلامية بيد قائدها المجاهد صلاح الدين، وفي هذه المرة تحرير القُدس الشريف والمسجد الأقصى أوّلِ القبلتين وثالث الحرمين الذي يئن فترةً من الزمن تحت غطرسة واحتلال الصليبين، وكان ينتظر بفارغ

(١) ينظر: مجلة المورد: ١٩٦، الدكتور نوري حمودي القيسي، المجلد السابع، العدد الثاني، ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م.

الصبر أن يعيد له حريته وقدسيته ومكانته إلى أن منّ الله عليه بشخصية إسلامية التي كانت دوماً تعيش من أجل تحريره، وكان همها الأول، وقد تحقّقتْ هذه الأمنية، ممّا دفع بالشاعر ابن الساعاتي أن يعبّر عن هذا الفتح الكبير، قائلاً:

أعيًا وقد عاينتُم الآيةَ العظمى؟ لأيَّةِ حالٍ تذخُرُ النصرَ والنَّظما
وقد ساغَ فتحُ القدسِ في كلِّ منطقٍ وشاعَ إلى أن أسْمعَ الأسْلَ الصُّمَّا
فليتَ فتى الخطَّاب شاهدَ فتحها فيشهدَ أنَّ السيفَ من يوسفَ أصمى
حَبا مكّةَ الحسْنى وثنَّى بيثْربَ وأطرَبَ ذيَّاكَ الضَّريح وما ضمَّا
وما كان إلَّا الداءَ أعيا دواؤهُ وغيرُ الحسام العضبِ لا يعرف الحَسما
وأصبح ذاك الثغرُ جذلانَ باسماً وألْسنةُ الإغمادِ توسعه لثْما
سلوا الساحلَ المختي عنْ سطواته فما كان إلَّا ساحلاً صادف اليمَّا(١).

وبعد أن تحرّرتِ القدسُ ظفر هذا الحدثُ العظيم بتقدير جليل لم يظفر به سواه من تاريخ الحروب الصليبية الطويلة، فقد كان يوم تحرير القدس يوافق ذكرى الإسراء بالرسول محمد – صلى الله عليه وسلم –، من المسجد الحرام بمكّة إلى المسجد الأقصى بالقدس. وقد تمّ في هذا التأريخ التوقيع على نسختي المعاهدة الخاصة باستسلام الصليبيين، ودخل المسلمون المدينة المقدّسة، في لحظات تاريخية حملت من مشاعر القدسية وشحنات التّسامي ما عجزت عن وصفه أقلام المؤرخين والأدباء الذين شاهدوا هذا الحدث الكبير. وفي الوقت الذي انصرف فيه اللاتين الصليبيون بجمع المال والمتاع استعداداً للرحيل، وأغلقوا الأبواب على أنفسهم، ودخل المسلمون ساحة المسجد الأقصى ليعيدوا إلى المقدسات قدسيتها(٢).

ولم يكن صلاح الدين عظيماً كعظمةٍ في هذا الموقف، يوم تحرير القدس فقد أمر بانتشار الأمراء والجنود ليمنعوا أيّ اعتداءٍ أو إهانة تقع لأيّ مسيحي، وقد توجه إليه الآلاف من النساء وبنات الفرسان الذين أسروا وقُتِلوا في تلك المعارك وخدمهم يسألنه الرحمة، فأمر بإطلاق سراح أزواجهنّ وإخوانهنّ ومنح بعضهنّ هبات مالية مناسبة(٣). وكان صلاح الدين يتلقّى التهاني

(١) ديوان ابن الساعاتي: ٢/ ٣٨٥، ٣٨٦.
(٢) معارك العرب ضد الغزاة: ٥٩.
(٣) الكامل في التأريخ: ٥٥٩/١١، ينظر مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢ /٢١٥، ٢١٦.

والتبريكات بهذه المناسبة من الأكابر والأمراء(١). وقد نظّم الشعراء في يوم تحرير القدس قصائد عصماء عرفتْ فيما بعد بـ (القدسيات). وقد تنوّعتْ الإشادة في شعر القدسيات بهذه المعركة، فحيناً يصفها وحيناً يتحدّث عن نتائجها، وحيناً يصوّر بهجة الأمة الإسلامية بها، وحزن الفرنج على خسارتها. لقد تغنّى الشعراء، وأطالوا وامتلأ العالم الإسلامي كلّه بنغمات من نشوة النصر وبهجته، وتدفّق الشعر فياضاً قوياً يصف ذلك كلّه(٢). كما أن للشاعر ابن الساعاتي نصيباً وافراً في تصوير ما كان يحدث من تحرير الأماكن المقدّسة لاسيما المسجد الأقصى، وقد أشاد بهذا الفتح على يد قائده المجاهد صلاح الدين الأيوبي، وكان لعظمة هذا الفتح يتمنّى حضور عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ليشاهد هذا الفتح المبين الذي أقرّ عيون العالم الإسلامي بأسره.

وكذلك من بين الشعراء الذين أثّرتْ فيهم شخصية صلاح الدين الشاعر عماد الدين الأصفهاني، وكان من الشعراء الذين كان له صلةً قويةً بهذا القائد وكثيراً ما يصاحبه في المعركة. ومما هنأ به البطل الكبير قصيدةً(٣)،يقول فيها:

رأيتُ صلاح الدين أفضلَ مَن غَدا وأشرفَ مَن أضحى وأكرمَ مَن أمسى
وقيل لنا في الأرض سبعةُ أبحُرٍ ولَسْنا نَرى إلّا أنامُلَه الخَمسا
فلا عَدمَتْ أيّامُنا مِنه مُشرِقا يُنير بما يوُلي لَيالينا الدُّمْسا
جُنودكَ أمْلاكُ السماءِ وظَنَّهُم عِداتُك جِنَّ الأرض في الفَتك لا الإنْسا
فلا يستَحِّقُ القُدسَ غيرُكَ في الوَرَى فأنتَ الذي مِن دونهم فتحَ القدسا
وقد شاعَ في الآفاقِ عنكَ بشارةٌ بأنَّ آذانَ القُدسِ قد أَبْطَلَ النَّقسا(٤).

انطلق الشاعر هنا من خلال قصيدته أن يعبّرَ عن سرور وفرحة القائد البطل صلاح الدين الأيوبي بمناسبة تحرير القدس، بعد ما هيأ له ما يجعله قادراً على الصُّمود والتحدي لطرد المعتدين، وردّ الغزاة، واستعادة الأرض الإسلامية وتحريرها. وهذا ما يعيد إلى أذهاننا أنّ الأدب لم يكن بعيداً عن الأحداث، وشعراء تلك الفترة لم يكونوا غائبين عن الساحة، وإنّما استطاع

(١) معارك العرب ضدّ لغزاة: ٥٥.
(٢) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية: ٤٦٢.
(٣) ينظر: مجلة المورد: ٧، المجلّد الثامن عشر، العدد الثاني، ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٦م.
(٤) ديوان عماد الدين الأصفهاني: ٢٣١، ٢٣٢.

الأدب أن يدخل المعركة فيرسم صورها، ويعيش مع الأحداث فيكشف عن أوضاعها، ويتابع دقائقها وخاصة ما كان يدور في إطار تلك الأحداث التي برزت بروزاً واضحاً، وقد حاول الشعراء أن يؤكّدوا من خلال قصائدهم احساسهم بصورة البطل المنتصر التي كانت ملامحه تلوح من تطلعات الواقع، وتوقعات الأحداث، وقد حاول الشعراء ان يضفوا على هذا البطل ما يجعله محرّراً ومنقذاً، كما وجدنا ذلك فعلاً في قصيدة الشاعر عماد الدين الأصفهاني بهذا الشأن، والتي عبّر فيها عن صورة الشجاعة والبسالة للبطل صلاح الدين في تحرير القدس. ومن الطبيعي أن تنعكس على هذه الصورة مطامح الجماهير الإسلامية التي كانت تؤمن بالرجل المنقذ ليعيد إليها حقّها، ويعيد لها كرامتها، ويستعيد الأرض التي أصبحت نهباً، ويسترد الحمى المستباح، وهذا ما يؤكّد لنا أن شعراء هذه الفترة استطاعوا أن يخرجوا على إطار المعاني المعروفة والصورة الشعرية التقليدية التي كانت تأخذ بزمام القصيدة، في الماضي. ولكن هنا ينعكس تماماً لأن ارتباط المعاني المعروفة والصورة الشعرية التقليدية التي كانت تأخذ بزمام القصيدة في الماضي. أصبح مشدوداً بالصورة الجديدة التي كانت تنبع عن واقع الحدث وتكسب كُلَّ المعاني والخواطر التي كانت تتطلّع إليها الجماهير المسلمة، وهي صورة غير مألوفة في الدائرة الشعرية التي تعارف عليها الشعراء سابقاً، إذ إن الصورة الجديدة تعبّر عن صيحات الشعراء والتذكير بالمعارك التاريخية الحاسمة، واستذكار قادة الفتح وأبطال المعارك والاستشهاد بهم في مواضع الصّمود والمقاومة في سوح القتال(١).

ومن الشعراء الذين هنأوا صلاح الدين الأيوبي بمناسبة تحرير القدس الشاعر المصري يُدعى محمد بن أسعد بن علي بن معمر الحسيني المعروف بالجواني نقيب الأشراف بالديار المصرية بقصيدة منها:

أ تُرى مناماً ما بعينـي أُبصِـرُ؟ القـدسُ يُفتَـح والفَرنجةُ تُكسَرُ!
وقمامة قُمَّتْ مِنَ الرِّجْـسِ الـذي بـزواله وزوالـها يتطَهَّـرُ
ومَليكُهم في القَيد مَصفُودٌ، ولـم يُرَ قبـلَ ذلكَ لَهم مَليـكٌ يُؤْسَـرُ
قدْ جاءَ نصرُ اللهِ والفتـحُ الـذي وُعِدَ الرسولُ فسبِّحوا واستغفروا
فُتِحَ الشامُ وطُهِّرَ القُدسُ الـذي هـو في القيامةِ لِلأنامِ المَحْشَـرُ

(١) ينظر مجلة المورد: ١٨٩، ١٩٠، المجلد السابع، العدد الثاني: ١٣٨٩هـ – ١٩٧٨م.

مَن كانَ هذا فَتحُهُ لِمحمدٍ ماذا يُقالُ له، وماذا يُذكَرُ؟
يا يوسفُ الصِّديقُ أنتَ لفتحها فاروقُها عمرُ الإمامُ الأطهَرُ
ولَأنتَ عثمانُ الشريعةِ بَعدَهُ ولَأنت في نصرِ النبوَّةِ حَيدَرُ
حيثُ الرقابُ خواضِعٌ حيث الـ عيوُنُ خواشعُ حيثُ الجِباهُ تُعَفَّرُ
تَمشي على جُثَثِ العدى عرجاً ولا عَرجَ بها ولكنَّها تَتَعَثَّرُ(١).

إنّ مطلع هذه القصيدة يعبّر عن الفرحة بالنصر في الوقعة، وتصوّر القصيدة أن آثار بيت المقدس تطهّرتْ، وخاصّةً كنيسة القيامة بالقدس مِن رجس المحتلين، ومن آثاره كذلك أن غدا ملك الصليبيين في القيد، ومن آثاره هذا العدد الذي لا حصر له من قتل الغزاة، تمشي على جُثثهم الجيادُ عرجاً وما بها عرجٌ، والسبب هو كثرة الجُثَث تُعرقلُ سيرها(٢). وتدلُّ هذه القصيدة على أن المسلمين لم يكونوا يستهينون بأمر الفرنج وملوكهم، وإنّما يرون أن الغلبةَ عليهم تحتاج إلى جهد جهيد، ومما يحزنهم و يؤلمهم أنهم يرون أن مليكهم في قبضة المجاهدين وعلى الرّغم من أنّهم كانوا أقوياء أشداء، ولهذا انصرف الشعر إلى تمجيد صلاح الدين ورفعه إلى درجة أنه يشبه الخلفاء الراشدين في نضاله ضدّ الطّغاة(٣).

ولابدّ هنا من الإشارة إلى أنّ للباطل جولةً مهما تقوّى وتجبّر لم يدم طويلاً فلا بدّ أن يأتي يومٌ في النهاية يرجع فيه الحق إلى أهله، وينتصر الحقُّ على الباطل مهما طال الزمن.

وبعد فتح بيت المقدس بيد القائد البطل صلاح الدين الأيوبي بدأت نغمة الانتصار في آذان الجماهير المسلمة ولاسيما الشعراء مما أدّى بهم أن يمجدوا هذا النصر الباهر في قصائدهم وأبياتهم الشعرية تعبيراً عن أحاسيسهم وعواطفهم الجياشة إزاء البطل الفارس الذي حقّقَ هذا النصر ومن هؤلاء الشعراء الشاعر شهاب الدين فتيان الشاغوري الذي أتى إلى صلاح الدين ليهنئه بهذه المناسبة في قصيدته التي يقول فيها:

خلعت عليه خلعة الملك التي زيدتْ بهاءً بالطِّراز الأخضر
رُبَّ الملاحمِ لم يؤرِّخ مثلها العُلماءُ قِدماً في القديم الأعْصُرِ
لِمَ لم تدنْ شوس الملوك له وقد مَلَك السواحِل في ثلاثة أشهر

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢/٢٣٣، كتاب الروضتين: ٢/ ٣٧١، ٣٧٢.
(٢) أدب الحروب الصليبية: ١٣٢.
(٣) ينظر: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية: ١٠٦.

واسْتَنْقَذَ البيتَ المقدَّسَ عَنوةً مِن كلِّ ذي نَجسٍ بكلِّ مطَهَّرِ
وَأَرَيتَهُم لَمّا التَقى الجَمعـانِ بِالبَيتِ المُقَدَّسِ هَولَ يَومِ المَحشَرِ
وَرَدَّدتَ دينَ اللهِ بَعدَ قُطوبِهِ بِالمَسجِدِ الأَقصـى بِوَجهٍ مُسفِرِ
وَأَعَدتَ ما أَبداهُ قَبلَكَ فاتِحاً عُمرُ فَأَنتَ شَريكُهُ فـي المَتجَرِ
حَتّى جَمَعتَ لِمَعشَرِ الإسلام بَينَ الصَخرَةِ العُظمى وَبَينَ المِشعَرِ(١).

لقد عبّرَ الشاعر من خلال قصيدته عن احساسه العميق تجاه هذا النصر الكبير الذي تحقّق بسواعد القائد المجاهد صلاح الدين الأيوبي الذي أكحل عيون العالم الإسلامي، وقد كلّف هذا النصر التضحية والفداء من قبل المجاهدين وقائدهم الذي حمل راية تحرير الأراضي الإسلامية من دنس الطغاة والغزاة، كما حمل رايتها من قبل الفاروق عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –، فهذا يؤكّد لنا أنّ مهمة الشعراء أمام الأحداث في هذه المرحلة من خلال شعرهم لم تكن أقلّ شاناً من مهمة هؤلاء الأبطال الذين سطّروا أروع الملاحم البطولية لطرد المحتلّين للمقدسات الإسلامية، إذ إنّ وقوف الشعر الى جانب الأحداث الكبرى في فترة حرب التحرير التي خاضتها الجماهير الإسلامية من خلال تحرير بيت المقدس والتزامه بتسجيل الملاحم الخالدة التي سجّلها ابطال المعارك وتحريضهم على تحرير ما بقي من الأرض، يُعدّ موقفاً أدبياً متقدّماً، وأسلوباً فكرياً من أساليب التوجه الجديد الذي أخذ الشعراء به أنفسهم تخليداً لمواقفهم البطولية للأجيال القادمة، ومما لا شك فيه أنّ الشعراء قد سجّلوا مواقفهم بوضوح، ورسموا للجماهير صورة البطل الذي حقّق الانتصار وخلّد الشعب، وأكّد القدرة على المجابهة الحربية، وقد أصبحت هذه الانتصارات أناشيد فخرٍ وملاحمَ تمجيدٍ في أشعارهم(٢).

ولم تتوقف أناشيد النصر على لسان شعراء هذه المرحلة من خلال شعرهم، فهذا هو الشاعر الحكم أبو الفضل الجلياني الذي هنأ الناصر صلاح الدين بيوم تحرير القدس، بقصيدة منها قوله:

مِن باطِنِ الغَيبِ ما لا تُدرِكُ الفِكَرُ فَذو البَصيرَةِ في الأحداث يَعتَبِر
مالـي أَرى مَلِكَ الإفرِنـجَ في قَفَصٍ أَيَنَ القَواضِبُ وَالعَسّالَةُ السُمُرُ

(١) ديوان فتيان الشاغوري، ت ٦٠٥هـ، تحقيق احمد النجدي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، (د.ت): ١٤١، ١٤٢.

(٢) ينظر: مجلة المورد: ١٩٥، المجلد السابع، العدد الثاني، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

وَالإسبِتارُ إِلـى الدَوِيَّـةِ التَأَمـوا كَـأَنَّهُم سَدُّ يَأجوجٍ إِذا اِستَجَـروا
يا وَقعَةَ التَـلِّ ما أَبقَيتِ مِن عَجَـبٍ جَحافِلٌ لَم يَفُت مِن جَمعِها بَشَـرُ
وَيا ضُحى السَبتِ ما لِلقَومِ قَد سَبَتوا تَهَوَّدوا أَم بِكَأسِ الطَعنِ قَد سكِروا
حَطّوا بِحِطينَ ملاّكاً كافِيـاً عَجَبـاً فـي ساعَةٍ زالَ ذاك المَلِكُ وَالقَدَرُ
أَهوى إِلَيهِم صَلاحُ الديـنِ مُفتَرِسـاً وَهوَ الغَضَنفُرُ عَدّى ظَفرَهُ الظَفَرُ
وَعايَنَ المَلِكُ الإِبرِنسُ فـي دَمِـهِ فَمـاتَ حَيّاً وَحَيّـاً وَهوَ يَعتَذِرُ
رَأى مَليكاً مُلـوكُ الأَرض تَتبَعُـه وَالنَجمُ يَخدِمُهُ وَالشَـمسُ وَالقَمَرُ
هَذا المَليكُ الَّذي بُشرى النَبِيِّ بِـهِ في فِتنَةِ البَغيِ لِلإِسـلامِ يَنتَصِـرُ
وَصُنعُ ذي العَرشِ إِبداعٌ بِلا سَبَبٍ فَلا تَقُل: كَيفَ هَذا الحادِثُ الخَطِرُ؟
يَسبـي فِرِنجَةَ مِن أَقطارِها وَلَـهُ مَعَ المَجوسِ حُروبٌ قَدْحُها سُـعُرُ
وَبَعـضُ أَبنائِـهِ بِالقُدسِ مُنتَدِبٌ وَبَعضُها (رومَةُ) الكُبرى لَهُ وَطَرُ
بِرايَـةٍ تَخرِقُ الأَرضَ الكَبيرَةَ فـي جَمعٍ تَقولُ لَهُ الأَجسامُ: لا وَزَرُ(١).

ومن الجدير بالذكر أن شخصية صلاح الدين الأيوبي في التضحية والإباء والفروسية أصبحت ملحمة لهؤلاء الشعراء الذين صوّروا في أدبهم تلك الملحمة والفروسية الرائعة في جهاده المقدس ضدّ الصليبيين لاسيما بعد انتصاره في فتح حطين وبيت المقدس وحلب إلى وجود تيار شعري وأدبيّ يعتدُّ بالقوة والرصانة، وقد تغنّى الشعراء في شعرهم بهذه الانتصارات الباهرة مصوّرين فيه صلاح الدين رمزاً للبطولة والعزّة والشهامة للإسلام وأبنائه. وقد حظي الشاعر أبو الفضل الجلياني بنصيب وافر في قصائده وأبياته الشعرية للتعبير عن تلك الصفات الحميدة التي اتصف بها هذا البطل ابن أيوب في دحر القوة الغاشمة التي استولت على الأراضي الإسلامية ومقدّساتها إلى ان أصبحوا أذلاّء منهزمين مذعورين وكأنهم سكارى امام الضربات القاسية التي تلقّوها من المجاهدين وقائدهم الشجاع. ومما يُلفِتُ إليه النظر هنا أن اشارة الشاعر إلى (ويا ضحى السبت) هو اليوم التالي الذي انتصر فيه صلاح الدين في موقعة حطين(٢).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣/ ٤٠٦، ٤٠٧.
(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٢٠٦.

ولايزال الشعراء يعيشون في خضم هذه الانتصارات خاصّة النصر الذي تحقّق بعد تحرير بيت المقدس الذي أدخل السرور والبهجة في قلوب العالم الإسلامي، وهو الشاعر ابن جبير الرحالة الأندلسي مخاطباً صلاح الدين ومشيراً إلى تحريره بيت المقدس، قائلا:

وغيّرت آثارهُم كلّها فليس لها الدّهرُ من جابرِ
وأمضيتَ جدّك في غزوهم فتعْساً لجدّهم العاثرِ
فكلّهمُ غَرِقٌ هالكٌ بتيّار عَسكَرِكَ الزّاخِرِ

إلى أن يقول:

فتحتَ المقدس مِن أرضِهِ فعادَتْ إلى وضعِها الطّاهرِ
وأعليتَ فيه منارَ الهدى وأحييتَ مِن رسم الدّاثرِ
لَكُم ذخَّرَ اللهُ هذا الفُتو حَ من الزّمَنِ الأوّل الغابر
وخَصّكَ مِن بعدِ فارُوقِهِ بها لاصطِناعكَ في الآخرِ
مَحبّتكُم أُلْقِيَتْ في النّفو سِ بذِكرٍ لَكُم في الورى طائِرِ(١).

والقصيدة واضحة المعنى، سهله العبارة تحمل كثيراً من التفاؤل، فبعد تحرير القدس أمّلَ الناس استرداد جميع أجزاء الوطن من براثين الغزاة الصليبيين، وهذا ما حدث في مقبلات الأيام(٢). ثم أتت الحملة الصليبية الثالثة نَجدةً للفرنج الذين أزاحهم صلاح الدين عن البلاد، فلم تستطع هذه الحملة أن تغيّر شيئاً من موقف صلاح الدين، لأنها عجزتْ عن استرداد بيت المقدس من يده(٣)، في ذلك يقول الشاعر الحكيم ابو الفضل الجلياني:

يا مُنقَذَ القُدسِ مِن أَيدي جَبابِرَةٍ قَد أَقسَموا بِذِراعِ الرَبِّ تَدخُلُهُ
فَأَكذَبوا كِذبَهُم في وَصفِ رَبِّهِم وَصَدَقَ الوَعدُ مَأموناً تَحَوُّلُهُ
أَما رَأَيتَ اِبنَ أَيّوبَ اِستَقَلَّ بِما يَعيي الزَمانُ وَأَهليهِ تَحَمُّلُهُ
هاجَ الفَرَنجُ وَقَد خاروا لِفَتكَتِهِ وَاستَنفَروا كُلَّ مَرهوبٍ تُغَلغِلُهُ
لَمّا سَبى القُدسُ قالوا كَيفَ نَترُكُها وَالرَبُّ في حُفرَةٍ مِنها نُمَثِّلُهُ

(١) ديوان الرحالة ابن جبير الاندلسي: ١١١ – ١١٢، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور منجد مصطفى بهجت، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ط١، ١٤١٩هـ -١٩٩٩م.
(٢) صالح الدين الأيوبي بين شعراء عصره: ١٠٨، ١٠٩.
(٣) مجلة المورد: ١٠، المجلد الثامن عشر، العدد الثاني، ١٤٩٠هـ – ١٩٨٦م.

فَكَم مَليكٍ لَهُم شَقَّ البِحارَ سَرىً لِيَنصُروا القَبرَ وَالأَقدارُ تَخذِلُهُ
اِستَصرَخوا الأَهلَ وَالعَدوى تُمَزِّقُهُم وَاِستَكثَروا المالَ وَالهَيجا تُثَقِّلُهُ
سَيفٌ أَمامَ فِلَسطينٍ يَرى أُمَماً خَلفَ البِحارِ لَقَد أَمهاهُ صَيقَلُهُ
كَم قَد أَعدّوا وَكَم فَلَّ جَمعُهُم مِن غَيرِ ضَربٍ وَلا طَعنٍ يُزَيِّلُهُ
وَإِنَّما اِسمُ صَلاحُ الدينِ يُذكَرُ في جَيشِ العَدُوِّ فَيُسبيهِم تَخَيُّلُهُ(١).

وهكذا اشترك العالم الإسلامي كلّه في تهنئة القائد صلاح الدين الأيوبي بيوم تحرير القدس، والواقع أنّ الشعراء مهما جوّدوا وأنّ الكتّاب والخطباء مهما أبدعوا فإن الفضل في تجويدهم لسيف هذا الرجل(٢)الداهية ولبطولة الجند النشامى الذين حاربوا معه بإخلاص. لقد امتازتْ القصائد القدسيات بالحماسة المتدفّقة وبحرارة العاطفة التي تدلّ على ما كان يعتمل في نفوس الشعراء يومئذٍ، من اضطرام نيران الألم، لاغتصاب القدس الإسلامية، ولمّا أصاب أهلُها من وبلاتٍ وتشريدٍ، وذبحٍ وتقتيلٍ. لقد تلوّنت هذه القصائد ألواناً شتّى، بين حُزنٍ وحسرة، بين فرحٍ وبهجةٍ، وبين تمجيد البطل المنقذ الناصر صلاح الدين، وحثّ على النزال، إلى غير ذلك من ألوان العواطف والخلجات التي ألّمَتْ بالأمة. أبان الحروب الصليبية(٣). وبعد ذلك لقد بدى واضحاً أنّ الشعر الذي تناول الصراع بين المسلمين والصليبيين، ولاسيما الذي تناول قضية القدس اقتصر على الحماسة، وتمجيد البطولة، وتسجيل بعض الحوادث التي جرتْ أثناء الصراع الدائر بهذا الشأن، واظهار السرور والابتهاج في بأخبار الانتصارات، وتقديم التهاني للبطل صلاح الدين، من قلب العالم الإسلامي(٤). وفي الحقيقة أنّ الشعراء الذين عاصروا هذه الأحداث، والذين أرّخوا لتطوراتها وتغيراتها ومعاركها، التزموا مبدأ التذكير بالقدس وتحريرها، والحديث عن مقدساتها وضرورة تحريرها، بل إنّ هؤلاء الشعراء لم يتركوا المناسبات الخاصّة والشخصية، دون أن تكون مقاماً لحديثهم عن تحرير القدس وتطهيرها من دنس الصليبيين، فعلى سبيل المثال لا الحصر وعندما ذهب الشاعر العماد الكاتب إلى صلاح الدين ليعزيه في

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤/ ١١٥، ١١٦.
(٢) أدب الحروب الصليبية: ١٤٤.
(٣) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: ٤٦١، ٤٦٢.
(٤) الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد: ١٤٩.

وفاة عمّه، لم ينس الشاعر في سياق هذا العزاء أن يعيد التذكير بالقدس داعياً إلى عدم إهمالها وتجهيز العدّة لتحريرها من جديد(١)، فيقول:

فصُبّوا على الإفرنج سوط عذابها بأن تقسمّوا ما بينها القتل والأسرا

ولا تهملوا البيت المقدس، واعزموا على فتحه غازين، وافترعوا البكرا(٢).

وكذلك لم ينس الشاعر عمارة اليمني عندما يهنئ صلاح الدين بتحرير غزّة أن يُذكّره بالقدس، فتحريرهما فتح لباب تحرير الشام كلّه من يد الغاصبين، إذ يقول:

غزوا عقرَ دار المشركين بغزةَ جهاراً وطرف الشرك خزيان مطرقُ

وهيّجتْ للبيت المقدّس لَوعَةٌ يطـول بـها منـه إليك التّشَوُّقُ

هو البيت إن تَفتَحتَهُ، والله فاعلٌ فما بَعدَهُ بـابٌ من الشامِ مُغلَـقُ(٣).

فإذن، كانت القدس هي القضية المحورية التي أجمعتْ مِن حولها الإمارات والولايات وكلّ المذاهب والفرق والاتجاهات... وأصبح تحرير القدس هو طريق الوحدة الإسلامية(٤).

ولقد كان طبيعياً ومنسجماً مع حركة التأريخ وإدارة الحياة أن يتصرف صلاح الدين في هذا الصراع، لأنّه فرّق بين الذين جاءوا من مختلف البلاد الأوروبية بشريعة المجازر وقانون الدّمار وقيم السلب والنهب ليقيموا ملكاً على أنقاض الشريعة الإسلامية وقيمها والمؤمنين بها، وبين الذين أثارتهم هذه البشاعات فهبّوا يُعيدون الحقّ إلى نصابه ويمحون عن الإنسان المتحضر تلك الوصمة التي لطخ بها الصليبيون هذه الصفحة من صفحات التأريخ(٥).

حقّاً أن شخصية صلاح الدين الأيوبي قد أثّرتْ في نفوس الشعراء بشكل لا مثيل له في عابر الأزمان والعصور، فالقصائد التي استشهدنا بها من خلال بحثنا هي خير دليل على ذلك، ولا غرابة في هذا؛ لأنّ الله جلّ ثناؤه قد هيّأ لهذه الأمة رجلاً يعيد لها عزّتها وكرامتها وهيبتها، بعد أن كانت تعاني من الذّلّ والهوان تحت الاحتلال الصّليبي، فهذا هو شاعر آخر

---

(١) معارك العرب ضدّ الغزاة: ٤٧، ٤٨، ينظر مجلة المورد: ١١، المجلد الثامن عشر، العدد الثاني ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٦م.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١/ ق٢/ ٤٥٤.

(٣) المصدر نفسه: ١/ ق٢ / ٤٩٣، ٤٩٤.

(٤) معارك العرب ضدّ الغزاة: ٤٨.

(٥) معارك العرب ضد الغزاة: ٥٩، ينظر: مجلة المورد: ١١، المجلد الثامن عشر، العدد الثاني، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٦م

اسمه الرشيد عبد الرّحمن بن بدر النابلسي الذي قَدِم إلى صلاح الدين ليهنّئهُ بيوم تحرير القدس في قصيدة منها:

هذا الذي كانت الآمالُ تنتظرُ فَلْيُوَفِّ لله أقوامٌ بما نَذَروا
بمثل هذا الفتح لا والله ما حُكِيَتْ في سالِفِ الدهرِ أخبارٌ ولا سِيَرُ
نَقَضتَ ما أبرموا، أبْرَمتَ ما نَقَضوا عَمَرتَ ما هَدمُوا، هَدمتَ ما عَمَرُوا
يا بَهجَةَ القدسِ إذ أضحى به عَلم الإ يمانِ مِن بعدِ طَيٍّ وهو مُنتَشِرُ
يا نُورَ مسجِدِهِ الأقصى وقد رُفِعَتْ بعد الصليبِ به الآياتُ والسُّوَرُ
هذا الإمام صلاح الدين أشرَفُ مَن به الممالِكُ والأملاكُ تفتخرُ
دانَتْ ودامَتْ له الدنيا فما أحدٌ في الأرض الاّ نعماك يَفتَقِرُ
يا خاطِباً جنَّةَ الفِردَوسِ مُهرَها أجِرِ الجيادَ لَنِعمَ الصِّهرُ والمُهَرُ(١).

لقد أشاد الشاعر بموقف البطل صلاح الدين الذي تحقّقت تحت قيادته آمالُ الأمة الإسلامية التي كانت تنتظرها أمداً بعيداً، وبفضل الله لقد تحقّقت هذه الأمنية حينما قطع على نفسه تحرير جميع الأراضي الإسلامية لاسيما تحرير بيت المقدس من قبضة الأعداء، وهذا ما يؤكد لنا أنّ الشعراء قد سجّلوا انتصارات المجاهدين، وجعلوا قصائدهم خدمة للمواقف البطولية لأبطال التحرير وخاصّةً صلاح الدين الذي تمّ على يده تحرير بيت المقدس، وقد سجّل الشعر هذه المواقف أدبياً وتاريخياً وتسجيلاً دقيقاً، وتابع تصوّر الوقائع متابعةً توحي باستيعاب الشعراء مهماتهم الأساسية، والتزامهم بالدور القيادي في استمرار عملية الاندفاع، وتأكيد الجانب البطولي في تثمين المواقف، وتسجيل الأحداث التزاماً بالرصد الأدبي والتاريخي(٢). وما يلفت النظر هنا أنّ القصيدة قد تضمّنت بين طياتها طبقات جميلةً فريدةً من نوعها تبرهن على قوّة الشاعر وأسلوبه الرائع في اختيار الألفاظ المناسبة للتعبير عمّا يختلج في نفسه من شعور وإحساس جياش نحو الحدث، كما نجد ذلك في هذا البيت:

نَقَضتَ ما أبرموا، أبْرَمتَ ما نَقَضوا عَمَرتَ ما هَدمُوا، هَدمتَ ما عَمَرُوا

---

(١) شعر الرشيد عبد الرحمن النابلسي، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور مشهور الحبازي، ط ١، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م، طبع في
مطبعة المنار الحديثة، المؤسسة الفلسطينية، الإرشاد القومي، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦.

(٢) ينظر: مجلة المورد: ١٩٠، المجلد السابع، العدد الثاني، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

ولا يزال الشاعر الرشيد عبد الرحمن بن بدر النابلسي ينشد قصيدةً أخرى بمناسبة فتح القدس وأشاد فيها مدحاً وثناءً بشجاعة السلطان صلاح الدين الأيوبي منها قوله:

أشرف العالمين حضراً وبدوا وأبر الانام عجما وتركا
ناصر الحق فهو ينقض ما تُبر مُ أيدي عداهُ شذراً وحَبكا
ذو السطا يرعِبُ الأُسُودَ تحامَتْ والندى يُخجِلُ العهادَ أرْكا
مِنْ صلاح الأنام والدين والدن يا بقاؤه فطال عُمراً ومُلْكا
أيها الناصر الذي خَذَلَ الكُفا رَ فما يَستفِيقُ بؤساً وضَنكا
والـذي مدّ الإلـهُ بِقدسٍ نَهكَتْ قُوَّةُ الضلالة نَهكا
يـا مميتَ الامحال يا محـي الا مالِ يا أطهر ابن أنثى وأزكا
ما لجيش الضلالة في بحر هُلْكٍ لا يحلـو للنجـا منه فُلكا
فقتيـلٌ مُعَفَّرٌ ليس يؤذي وأسيرٌ مكبَّـلٌ لَـن يُفكَّـا
ظلَّلَتْهم سماءُ جيشِـكَ تضـليـ ـلاً قَـدكَّـتِ الأرض دَكّا(١).

وفيما يبدو واضحاً مِن المفاهيم التي حوتْها القصيدة أنّ آمالَ المسلمين كانت معقودة بهذا القائد صلاح الدين الأيوبي في تحرير الأراضي الإسلامية، لأنّه يمتلك الإرادة القوية قولاً وعملاً، وأنّه لا يترك مجالاً للعدوّ أن يستمرّ في غطرسته وتجميع قوته، بل دائماً يفكِّرُ في انتهاز الفرصة السانحة لدحر الأعداء والقضاء عليهم بشتّى الوسائل المتاحة أمامه، و لهذا أصبحَ أنشودة الشعراء في قصائدهم للتعبير عمّا يملي عليهم بحقّه، كما وجدنا ذلك عند الشاعر الرشيد النابلسي في هذه القصيدة، وغيره من الشعراء الذين عبّروا عن تضحيات وجهاد هذا البطل الشجاع، فدراسة الشعر الذي خلّفته حروب التحرير في زمن البطل صلاح الدين سوف تترك البصمات الحقيقية التي طبعت هذا الشعر وحدّدتْ أبعاد أغراضه المتمثلة في شعر الجهاد والكفاح والصّمود والمقاومة، والتحريض على مجابهة العدو المغتصب والاندفاع في تسجيل ملاحم البطولة، والتّغني بأناشيد الانتصار وتخليد الأعمال التي كانت مثار إعجاب الشعراء. ممّا يؤكّد هنا أنّ الشعر قد كان حليفاً ورفيقاً لكلّ هذه المعارك، ومؤرّخاً لكلّ تلك الأحداث(٢).

(١) شعر الرشيد عبد الرحمن النابلسي: ١٦٠، ١٦١.

(٢) مجلة المورد: ١٩٣، ١٩٤، المجلد السابع، العدد الثاني، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

ويذكر أنّ الشعراء الذين تحدّثوا عن معركة بيت المقدس التي دارت رحاها بعد معركة حطين خصّصوا جزءاً من قصائدهم للحديث عن معركة حطين، تاج معارك صلاح الدين، فقد نظروا إليها على أنّها مقدّمة لهذا الفتح المجيد. ومن ذلك قصيدة لفخر الكاتب الحسن الجويني من أهل بغداد، منها:

جُندُ السماء لهذا الملك أعوانٌ مَن شَكَّ فيهم فهذا الفتحُ بُرهانُ
هذي الفُتوحُ فُتوحُ الأنبياءِ وما له سوى الشكرِ، بالأفعالِ أثمانُ
تسعون عاماً بِلادُ اللهِ تَصرُخُ والـ إسلامُ أنصارُهُ صمٌّ وعُميان
فالآن لَبَّى صلاح الدين دَعوتَهم بِأمرِ مَنْ هُوَ للمِعوانِ مِعوانُ
للنّاصرِ ادّخَرَتْ هذي الفتوحُ، وما سمعت لها هِممُ إلّا مَلاكٌ مُذ كانوا
لو أنَّ ذا الفتح من عصرِ النبيّ لقد تَنَزَّلَتْ فيه آياتٌ وقُرآنُ
إذا طوى اللهُ ديوانَ العِباد فما يُطوى لأجْلِ صلاح الدين ديوانُ(١).

ومن الجدير بالذكر أن الشاعر قد أفاض على شخصية صلاح الدين هالةً من التمجيد والثناء والتقدير بما يليق بها، لأنّه قد تحقّقتْ على يده انتصارات باهرة لم يسبق لها مثيلٌ في تأريخ الاحتلال الصليبي للأراضي الإسلامية ومقدساتها في مرور الزمن، كما أشار إلى الملوك والساسة المسلمين الذين كانوا غضّوا الطرف عمّا كان يجري على المسلمين وأبنائهم من القتل والسلب والإهانة من قبل قادة الصليبيين وجندهم، وهم لم يحرّكوا ساكناً، ووصفهم بالصُم والعميان؛ لأنّ الأمّة كانت تناديهم وهم في غفلةٍ من أمرها، ولم يُلبُّوا هذه النداءات، يسّر إليه مجيء صلاح الدين ليُلَبّي هذه الصرخة المدوّية من قبل المسلمين المخلصين ويحرّر لهم الأراضي الإسلامية ومقدساتها، ويعيد لهذه الأمة هيبتها وكرامتها ومكانتها وشخصيتها، وهذا ما يؤكّد لنا أنّ الشعر قد استمرّ في تصعيد مشاعر الجماهير المسلمة وهو يكتب صفحات الانتصار وتُخَلِّدُ روائع المجد، ويرتدي حلَّة الفخر والتباهي، وقد استطاع أيضا أن يحتوي المعاني الجديدة، ويصوغ الأفكار التي أفرزتْها حركة التحرير، ويسجّل أضراب البطولة التي أكّدت قدرتها من خلال المعارك، كما استطاع أن يفرضَ نفسه على الأحداث وسيلةً من وسائل التعبير الملحّة، ورافداً من روافد الفكر العربي الإسلامي الذي واكب المسيرةَ، فأعدّ لها من قوّته ما جعلها واضحةَ

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢/ ٣٦٩/ ٣٧٠.

الأهداف بارزةَ المعالم ... ولعلّ وقوف الشعراء عند ملحمة حطين وتحرير بيت المقدس وتمجيد أبطال المعارك تمثّل الانعطافات الشعرية الحادة في حركة الشعر العربي، وتعد الثروة الثرية لتراث هذه الأمة وأنّ كلّ جوانب من هذه الجوانب يشكّل دراسة مستقلة في التحليل، لتأخذ الفترة حقها، ولتصعيد صورتها، ولتصبح في أعراف الباحثين مركز دفع، وحركة انطلاق، ومجال توثب، فإذن إنّ موقف الشعر لم يقف عند الجانب الحربي أو البطولي وإنّما كان سجّلاً حافلاً لحضارة العصر وتقاليده، وسفراً خالداً من أسفار الواقع الاجتماعي الذي كانت تعيشه الأمة وتتحرّك في إطاره جموع الشعب، ومستودعاً من مستودعات الخزين الفكري لما كان يدور في الأذهان ويطرح في مجال النقاش وإنّ محاولة الوقوف عند هذا الشعر ووضعه موضع التحليل يكشف عن كثير من المسائل التي ما تزال أشكالها غير متميزة(١).

المحور الثاني: يقف عند العدل – الكرم والسخاء – العفو والتسامح عند المقدرة والوفاء بالعهد حتّى مع أعدائه.

مما لاشكّ فيه أنّ صلاح الدين الأيوبي يتّصف بكلّ هذه الصفات الحميدة ولا غرو في ذلك؛ لأن حياته مرّت من نعومة أظفاره على هذه القيم النبيلة، إذ إنّه ربيْه أمُّهُ الفاضلة وربّاه والده الكريم على هذه التربية الحسنة، وبالتالي أتت نتائجها وثمارها. ومن هنا نريد أن نلقي الضوء على ما ذكرناه من خلال الاستشهاد بالقصائد والأبيات الشعرية لشعراء هذه الفترة بهذا الشأن، وبأقوال الكتاب والباحثين من الأدباء والمؤرخين، وحتى بأعدائه الذين وصفوه بالرجل العادل الصادق الوفي. لابدّ هنا من الإشارة إلى أنّنا لا نلتزم بهذه الموضوعات الفرعية التي تناولتْ صفاته الحميدة على الترتيب الذي أوردناها، بل نتناولها حيث ما وجدنا إتاحة الفرصة السانحة أمامنا تسهيلاً للمهمة التي نحن بصددها. وللشاعر ابن سناء المُلك أبيات ضمن قصيدته البائية يتحدّث فيها عن عدالة صلاح الدين وكرمه وسخائه، فيقول:

أَرضُ الجزيرةِ لم تظفَرْ ممالِكُها بمالكٍ فطِـنٍ أَو سَـائِسٍ دَرِبِ
حتَّى أَتاها صلاحُ الدِّينِ فانْصَلَحَتْ من الفسادِ كَما صحَّتْ مِنَ الوَصَبِ
واستعملَ الجِدَّ فيها غيرَ مكتـرثٍ بالجَدِّ، حتـى كـأَنَّ الجِدَّ كاللَّعِب
وقد حَواها وأَعْطـى بعضَـها هِبـةً فهوَ الَّـذِي يَهَـبُ الدُّنْيَا ولم يَهَب

(١) مجلة المورد: ١٩٧، المجلد السابع، العدد الثاني، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

يُعطي الذي أُخِذتْ منه ممالِكُه وقد يَمُنُّ على المسلوبِ بالسَّلَب
ويمنحُ المُدُنَ في الجَدْوى لسائِله كمَا ترقَّعَ في الجدْوى عن الذَّهب
غارَتْ عليه، ومدَّ كفَّ مفْتقِر مِنْها إليه، وأَبْدَت وجهَ مُكْتَئِب
بكَ العواصِمُ طَابَتْ بعدما خَبُثَتْ بِمَالِكِيها، ولولا أَنْتَ لم تَطِبِ
فجود كفِّكَ ذُخْرٌ في يَدِي ويدي وحُبُّ بيتكِ إِرْثِي عن أَبِي فَأَبِي(١).

لقد تضمنت هذه الأبيات عدالة ابن أيوب في تدبير العباد والبلاد، إذ إنّ هذه البلاد كانت يحكمها الساسة المماليك ذوو شهرة دينية ولكن كانوا في غفلة من تحسين أمرها واصلاحها وخدمة ساكنيها، لأنّهم كانوا يعيشون في اللّهو واللّعب والطرب والعيش الّرغيد، وأهلها كانوا يعيشون في البؤس وضنك العيش، إلى أن أتى صلاح الدين فأقام فيها العدل وقضى على بؤرة الفساد والفاسدين فأصلح أمور العباد والبلاد وأعطى كلّ ذي حقٍّ حقّه وعادت على البلاد رفاهيتها ونعيمها وخيراتها، ورجع الحقوق المسلوبة التي أخذتْ من أهلها ظلماً وجوراً، فأصبح الناسُ في أمانٍ، وأصبحتْ عدالته تنال الجميع. ولم ينس الشاعر في سياق أبياته كرمه وسخاءه، بل أشار إلى ذلك من خلال هذا البيت، قائلا:

فجود كفِّكَ ذُخْرٌ في يَدِي ويدي وحُبُّ بيتكِ إِرْثِي عن أَبِي فَأَبِي

فلا عجب في ذلك؛ لأنّ الجود والسخاء من الصفات الحميدة التي اتّصف بها صلاح الدين.

وكذلك لابن سناء المُلك أبيات شعرية أخرى ضمن قصائده تناول فيها عدالة صلاح الدين كما في هذا البيت، قائلاً:

والله أكرمُ أن يُضَيِّعَ أمّةً أمِنَتْ بعَدلِكَ بعدَ طولِ التَّخَوُّفِ(٢).

ثم يقول في قصيدة أخرى ويشيد فيها بكرمه وسخائه وعفوه ووفائه وعدالته منها، فيقول:

أَرى كُلَّ شيءٍ في البسيطةِ قد نَما بعدْلِك حتى قد نَمَت أَنجُمُ السماء
فلا تَقْرِنُوهُ بِالمُلوكِ فإنَّهُ أَجَلُّهُم أَرضاً وأَعلاهُم سَماء
إذا بَخِلُوا أَعْطَى وإن عَاقَبوا عَفا وإن غَدَرُوا أَوْفَى وإن هَبَطُوا سَمَا
فَسيرَتُه لم تُبقِ في الأرض ظالِماً ونائِلُه لم يُبق في الخلق مُعْدِمَا

(١) ديوان ابن سناء المُلك: ٣، ٤.
(٢) الديوان نفسه: ٢٠٢ .

له نَائِلٌ يَسْعى إلى كُـلِّ سَائِـلٍ فيطلبُـه بالمـاءِ والزَّادِ أَيْنَمـا
وكم أَفْسَـدَتْ أَموالُـه قاصـداً وقد يَرْجعُ الشِّـيءُ الصحيحُ مُسقَّما
أَتـاهُ فألْفـاه رَبيعـاً وقبلَـه رأَى كلَّ جود في الأَنام المُحرَّمـا
ويَحْسبُه أَسْـرى إليـه وإنَّمـا إلى البَدْرِ أَسْرى أَو إلى الْبَحر يَممَّا
أَصاب بكَ اللهُ البلادَ فَصَـابَها وهل يُخْطِئُ المرمَى ورَبُّكَ قد رَمى
لو شَاءَ أَن يُغنِي الخلائقَ كلَّهم لولاكَ أَرْزاقَ العِبـادِ مُقَسِّمـا
فَفَخْراً لقدْ أَصبحتَ للخلق مَالِكاً وأَصبحـتَ فيهم للجميل متمِّما
أَعدْتَ إلى مِصرٍ سياسةَ يوسُفٍ وجدَّدْتَ فيها من سَمِيِّكَ مَوْسِمَا
فلم تُرَ إلاَّ بهجةُ العـدل مِنكُمـا ولم تُرَ إلا سُنَّةُ العـدلِ عَنكُمـا
كما أَنتَ فيها عادلٌ كان عادلاً كما أَنْتَ فيها مُنْعِمٌ كان مُنْعِمَـا(١).

ويبدو واضحا أنّ البيت الأول ضمن القصيدة التي هنّأ فيها الشاعر صلاح الدين بالعافية بعد أن شفاه الله من مرضه، ويريد أن يقول إنّ الله – جل ثناؤه – قد كَفَل شفاءك، ولا يخيب آمال الأمّة التي كُنتَ حاميها ومنقذها، وأقمت فيها العدالة وأمنتَ روعها من أعدائها بعد أن كانت تعاني منها زمناً طويلاً. وأمّا في الأبيات الأخرى لقد رفع الشاعر من شأن صلاح الدين، وكأنه يريد أن يقول إنّه لا يدانيه أحد من الملوك والأمراء في عصره؛ لأن شمائله ونبله تختلف تماماً عمّا كان هم عليه من حيث العطاء وإقامه العدل والوفاء بالعهد، كما أعاد الأمن والأمان إلى مصر، واتخذ لها نهج سياسة النّبي يوسف – عليه السلام – من تدبير الأمور بكلّ ما فيها من السعادة والهناء والعفو والتصافح لأهلها.

ومما يعيد للأذهان نشير بهذه المناسبة إلى قصة فريدة من نوعها بشأن نبل صلاح الدين من حيث عفوُه عند المقدرة ووفاؤه بالعهد، فهذا ما يروي لنا حبيب جاماني في كتابه (تأريخ ما أهمله التأريخ) الناصر صلاح الدين كان روجيه بيكون بطلاً من أبطال الحملة الثالثة في الحروب الصليبية وكان من المقربين من ملك الإنكليز (قلب الأسد) حَدَثتْ أن أُسرتْ أختُه في إحدى المعارك المدعوة (ماري) وانقطعتْ أخبارها مدةً من الزمن و بعد ذلك علم أخوها بأنّها أسيرةٌ في قصر صلاح الدين وأصبحت تدعى (ثريا) وما أن سمع أخوها الخبر أسرع إلى سيده

(١) الديوان نفسه: ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣.

الملك وألقى بنفسه بين قدميه باكياً طالباً منه المعونة لإنقاذ أخته من الأسر فطيّب ريتشارد خاطره وهدأ من روعه ووعده بأنه سيحقّق أمنيته فلما استفسر من الملك كيف السبيل إلى ذلك؟. قال (ريكادوس ريتشارد): أعلم أنّ السلطان صلاح الدين شهمٌ، همامٌ، شريف النفس، عالي الهمّة، عادلٌ، رحيمٌ وقد أثبتتْ لي الحوادث ذلك بما لم يترك مجالاً للشّك، ألا تتذكر يا روجيه تلك الموقعة التي التحمنا فيها مع جنود السلطان على مقربة من يافا والتي قُتِلَ فيها جوادي فأرسل إليّ صلاح الدين وأخوه جوادين حتّى لا أكُفَّ عن القتال أو أخرّ صريعاً وأنا راجل أقضى فيه إلى النهاية، ألا تتذكر كذلك إنّي قلّدت ابنَه الشاب سيف الفروسية في ميدان القتال اعترافاً منّي بجرأته وشجاعته نزولاً عند رغبة أبيه، انّنا يا روجيه نحارب أبطالاً مثلنا يصنعون قواعد الشرف وتقاليد الفروسية نصب أعينهم في كلّ طرف وحالٍ، وسأكتب إلى صلاح الدين طالباً منه أن يعيد إليك أختك ولا أعتقد بأنّه يرفض لي رجاءً. فشكر روجيه الملك وعطفه عليه، وكتب الملك خطاباً إلى صلاح الدين جاء فيه ((أيّها الملك العظيم، حامل خطابي جندي من جنودي البواسل وهو بطل لاقى أبطالك في الميادين وأبلى مثلهم في القتال البلاء الحسن، أخته أسيرةٌ في قصرك و كانتْ تُدعى (ماري) فأطلقتم عليها (ثريا) ولملك الإنكليز رجاءً من حضرتكم فأما أن تعيدوا إلى الأخ أخته وأما أن تحتفظوا به أسيراً معها فلا تفرّق بين من جمعهم الله، إنّي في انتظار قرارك وأذكّرك بقول إمامكم عمر بن الخطاب وقد تَلَقَّتْتُ مِن صديقي الأمير حارس اللبناني (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحراراً) فأمتطى روجيه جواداً سريعاً وراح ينهب الأرض نهباً إلى مقرّ السلطان. ومثّل بين يدي ملك الناصر ودفع إليه الكتاب ووقف ينتظر الرّد وقلبه يخفق وشفتاه تختلجان قرأ السلطان الكتاب ورفع نظره إلى الشاب المضطرب طالباُ الجلوس ثم أمر السلطان بردّ الفتاة إلى أخيها ومدّ يده إلى روجيه ليصافحه فأكّب الشابُّ على يديه يُقبّلها وتساقطتْ دُموعُ الفرح من عينيه، وكتب جواب الكتاب. ((أيهّا الملك صافحتُ الجندي الباسل الذي بعثتَ به رسولاً فليحمل إليك المصافحة ممّن عرف قدرَك في الميادين، لن أحتفظ بالأخ أسيراً مع أخته لأننا لا نستبقي في بيوتنا إلّا أسلاب المعارك لقد أعدنا للأخ أختَه وإذا ما نزل صلاح الدين على قول عمر بن الخطاب فإنّما فعل ذلك لكي ينزل (ريكاردوس)

على قول عيسى ((أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله)) فارحَلْ أيها الملك عن أرضٍ ليست ملكاً لك واعِدْها إلى أصحابها الذين اغتصبتَها منهم، والسلام(١).

لابدّ هنا من الإشارة إلى أنّ نقل هذه القصّة أو هذه الحادثة ليست مجرد التسلية أو ملأ أوقات الفراغ لدى القارئ والمتلقي بل كان نقلها والوقوف عندها لأخذ الدروس والعبر من هؤلاء القادة المخلصين الأوفياء لدينهم وشعبهم، وحتّى للعالم الإسلامي بأسره، كيف كانوا من أصحاب الشّيم والقيم النبيلة والعفو والتسامح عند المقدرة حتى مع أعدائهم، بما لم يعد بالضرر على الإسلام وأبنائه، بل ليعود عليهم بالنّفع والخير. إذ إنّ هذه المعاملة الحسنة أكدّت لهؤلاء أنّ الإسلام هكذا يصنع مثل هؤلاء الرّجال، ويزرع فيهم الهمم والشيّم والأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة التي تعدّ فخراً واعتزازاً لهذه العقيدة السمحاء التي ربّتْ صلاح الدين على تلك الشمائل النبيلة. ليت قادة العالم الإسلامي يقتدوا بسيرة هذا القائد العظيم في تعاملهم مع شعبهم وتدبير أموره بما يرجع عليه بالنفع والسعادة والهناء واليمن والبركة.

ومن الدلائل الساطعة على وفاء صلاح الدين وتمسكه بعهده ووعده والحفاظ عليه أنّه حينما وصل إلى دمشق قادماً من مصر أشير إليه أوّلاً الاغارة على حلب، فأبى على أصحابه ذلك بحجة أنّ الهدنة بينه وبينهم لم ينقض أجلُها بعد. فقال له أصحابه ألا ترى أنّهم قد هادنوا الصليبيين، واستعدّوا بشيخ الجبل فادهمهم أيها الملك قبل أن يدهموك، وأشغلهم قبل أن يشغلوك وأفسد عليهم خطّتهم قبل أن يفسدوا عليك خطّتك، فما ازداد الناصر إلاّ رفضاً وإباءً وتَمسُّكاً بوفائه، وقال يومئذٍ لأصحابه إنّي لأستحي من الله أن يراني كذّاباً، أو يراني نهازاً، أو يراني مخلفاً لوعد(٢). وكذلك من وفائه بالعهد أنّه حين دخل بيت المقدس بعد تحريرها لم يحدث فيها مذبحة مروعة كتلك الّتي حلّت بها المدة من ١٥- ٢٥ يوليو عام ١٠٩٩م، إذ تمّ الفتك بنحو أكثر من سبعين ألفاً من المسلمين(٣). ((منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وزهادهم...)) (٤). وهناك إشارات مفصّلة في المصادر التأريخية الصليبية تؤكّد ذلك بوضوح،

(١) نقلاً عن كتاب صلاح الدين الأيوبي أسد القارتين: ٦٩، ٧٠.
(٢) صلاح الدين بطل حطين: ٩٦، ٩٧.
(٣) الكامل في التأريخ: ١٠/ ٢٨٣.
(٤) المصدر نفسه: ١٠/ ٢٨٤.

مثل ال((حستا)) المجهول، و((رايموند جيل))، و((وفوشيه الشارتري))، و((بطرس توديبود))، و((وليم الصوري)) وغيرهم بعكس ما حدث على يد السلطان صلاح الدين حين دخل بيت المقدس بعد تحريرها، لقد وعد صلاح الدين أهل المدينة المقدسة بالأمان، ونفّذ وعده على الرّغم من أنّ قادة الصّليبيين خلال الحملة الأولى، وعدوا وأخلفوا وذبحوا!، ولكن هذه الأعمال البشعة لا تنسجم مع نبل وشهامة صلاح الدين ولا يتراجع عن وعده الذي قطعه على نفسه البتة حتّى لأعدائه(١).

وقد نظم الشاعر عماد الدين الأصبهاني قصيدةً في مدح صلاح الدين الأيوبي بعد ما عرف أنّه يحبُّ شعره، والقصيدة طويلة ولكن وقفنا عند بعض أبياتها التي تناول فيها سخاءه وكرمه الفياض، اذ يقول:

فضله في يد الزّمان سوارُ مثلما رأيه على المُلْكِ سُورُ
كرمٌ سابغٌ، وجُودٌ عميمٌ وندىً سائِغٌ، وفضلٌ غزيرُ
راحةٌ أم سحابةٌ، وبنـانٌ أم غَمامٌ، وأنْحُلٌ أم بُحُورُ(٢).

لابدّ هنا الوقوف عند إعجاب الشاعر بكرم هذا الرجل من خلال تعبيره له بهذه الألفاظ الرائعة التي تتولّد فيها أنغاماً موسيقة جميلة تلتذُّ لها الأذان، إذ لم يكن كرمه خافياً عند العامة والخاصة، لقد أشار ابن الصبري في كتابه (تأريخ مختصر الدُّول) الي كرمه واخلاقه قائلا: وكان حليماً كريماً حسن الأخلاق متواضعاً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب أصحابه. وأما كرمه فإنّه كان كثير البذل لا يقف في شيءٍ يخرجه، ويكفي دليلاً على كرمه أنّه لما مات لم يخلّف في خزانته غير دينار واحدٍ صوري وأربعين درهما ناصريّاً(٣).

وهذا ما يملي علينا أنّنا مهما كنّا نتحدّث عن هذه الشخصية الفياضة نبقى مقصرين بحقّها، والأقلام عاجزةٌ عن التعبير عنها بما يليق بها. ولم يتوقف سخاؤه عند هذا الحد حتّى أن

(١) ينظر: رحلة إلى صلاح الدين الأيوبي: ٢٣٣، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: ٤، ٩.
(٢) ديوان عماد الدين الأصبهاني: ١٨٠.
(٣) ينظر: تأريخ مختصر الدول:٢٢٣، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: ٤، ٩.

المسيحيين كثيراً ما أثنوا عليه لسخائه وسماحته ووفائه بوعده، هؤلاء المسيحيون الذين أحزنهم السلطان بانتصاراته، وقضى على سيطرتهم في القارّة الآسيوية(١).

ونعود بعد ذلك إلى عدالة صلاح الدين الأيوبي الّتي تحدّثنا عنها سابقاً، إذ نجد هنا أن الشاعر عماد الدين الأصبهاني يشيد بعدالته من خلال هذين البيتين، قائلاً:

بَلَغْتَ بالجدِّ ما لا يَبلغُ البَشرُ ونِلْتَ ما عَجَزَتْ عَن نَيْله القَدَرُ

أصْبَحتَ بِالعَدْلِ والإقدامِ مُنْفَرِداً فَقُلْ لَنا: أعَليٌّ أنتَ أم عمرُ؟(٢).

وقد عبّر الشاعر عن إعجابه بعدالة صلاح الدين الأيوبي في هذين البيتين بشكل يجلب انتباه القارئ نحوه لأنّه يتحلّى في أوجه قمة العدالة، ولا عجب في ذلك، لقد أطلق عليه الأمير أسامة بن منقد مجموعة من الألفاظ التي في منتهى الدقّة في التعبير عن بعض الصفات الحميدة التي يتصف بها، منها عدالته، إذ يقول: ((مولانا الملك الناصر صلاح الدين الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، جامع كلمة الإيمان، قامع عبدة الصّلبان، رافع علم العدل والإحسان، محي دولة أمير المؤمنين أبو مظفر يوسف بن أيوب. جمّلَ الله الإسلام والمسلمين بطول بقائه، وأيّدهم بماضي سيوفه وآرائه... والسلطان الذي أحيا سنة الخلفاء الراشدين، وأقام عمود الدولة والدين،... فلا زالت الأمّةُ من سيوفه في حمىً منيعٍ... ومِن عدله في أنوارٍ تكشف عنهم ظلم المظالم، وتكفّ بسطة المعتدي الغانم...)) (٣).

ومن الجدير بالذكر أنّ العدالة صفة جميلة لأنها من إحدى صفات الله – عزّوجلّ – ، ويريد أن يتّصف بها عباده. وقد أمر الله – سبحانه وتعالى – بتحقيق العدل والإحسان، والابتعاد عمّا نهى الله عنه، كما في قوله – جلّ وعلا –: ﴿إِنَّ اللهَ يَأمُرُ بِالعَدْلِ وَالإحْسانِ وإيتاءِ ذِي القُربَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ وَالمُنكَرِ وَالبَغِي يَعِظُكُم لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾(٤)

فإذن الإحسانُ بالعدل، لأنّ العدل دون الإحسان لا يخلو أحياناً من القسوة، لذلك شاء الله – سبحانه وتعالى – أن يذكّرنا بأهمية الاحسان خاصّة عند الالتزام بمبدأ العَدل. ((والإحسان)) أهمُّ وأعمق في معناه من ((التسامح)) وهي الكلمة التي ذاعتْ وانتشرت منذ أعلنت

(١) ينظر: صلاح الدين الأيوبي بمناسبة مرور ثمانمائة السنة على وفاته: ١٤٢.

(٢) ديوان عماد الدين الأصبهاني: ١٦٩، ١٧٠.

(٣) كتاب الاعتبار: ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥.

(٤) سورة النحل، الآية: ٩٠.

المنظّمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم (الأنيسكو) عام ١٩٩٥م دولياً للتسامح. فالتسامح قد يتضمّن معنى الاستعلاء، إذ يتسامح الأقوى مع الأضعف. ولذلك اعترض بعض الكتاب على دعوات التسامح. أما ((الإحسان)) بالمعنى القرآني الذي أتى في هذه الآية الكريمة فإنه يرتبط بالعدل عندما تكون الأحكام قاسيةً، وإن كانت عادلةً، ولهذا اتّخذ صلاح الدين لنفسه ((الإحسان)) الذي كان يعني الإلتزام بمبدأ العدل(١). ومما كان يؤكّد لنا أنّ العدل والإحسان من شيمة صلاح الدين، يقول بهذا الشأن ابن شداد: ((لم يزل صلاح الدين على قدم بسط العدل ونشر الإحسان، وإضافة الإنعام على الناس...)) (٢).

لقد حظي صلاح الدين بنصيب وافر بمدح الشعراء لاسيما شعراء الشام، ولكن لم يتوقف مديحه عند هذا الحد لهؤلاء الشعراء بل تجاوز ذلك، إذ لم يكن نصيب شعراء مصر في مدح صلاح الدين أقلّ من نصيب شعراء الشام، فمنهم عمارة اليمني (ت ٥٦٩ هـ) الذي كان مع الفاطميين، فلما ملك صلاح الدين مدحه ومدح جماعة من أهله(٣). فمما مدحه به عند توليه الوزارة بمصر هذه الأبيات التي تضمّن فيها عدله، فيقول:

يا شبيهَ الصديق عدلاً وحُسْناً وسَمْياً حَكاهُ مَعنىً وَمَغْنـي
هذهِ مصرُ يوسُفٍ حلَّ فيها حلَّ فيها مالكاً وما حلَّ سجنا
أنتَ حرَّمتَ أن يُثَلَّثَ فيها بِسوى الله وَحدَهُ أو يُثَنَّـى
إنّما المُلكُ والوَزارةُ جِسمٌ أنتَ روحٌ فيه وفي اللّفظِ مَعْنَى(٤).

لو تعمقنا في المفاهيم التي تضمّنتها الأبيات لوجدنا أنها تتناول عدالة السلطان صلاح الدين من قريب أو بعيد، وممّا لا شكّ فيه أنّ البيت الأول قد تضمّن فيه عدله بصورة واضحة لأنّه شبّهه بالنبي يوسف – عليه السلام – في إقامة العدل وعبادة إله واحدٍ حين تولّى إدارة الحكم في مصر. وكذلك أتى صلاح الدين إليها على منواله لتثبيت دعائم العدل فيها بما فيها تأمين الأمن والأمان، وتحقيق السعادة والهناء لأهلها وإيجاد سُبُلِ عَيشٍ رغيدٍ يتمتع بها أبناء مصر، والسعي في إحياء تراث الدين والعقيدة الإسلامية فيها بعيداً عن الخرافات وعبادة التّثليث

(١) صلاح الدين الأيوبي بمناسبة مرور ثمانمائة السنة على وفاته: ١٠.
(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: ٢٧.
(٣) كتاب الروضتين: ١/ ق٢/ ٤٦٣.
(٤) المصدر نفسه: ١/ ق٢/ ٤١٤.

والتّثنيث كما للنصارى وغيرهم من اليهود، إذ إن مجيئه إلى مصر لم يكن لأجل الحصول على المال أو امتلاك المناصب والتباهي بها وإنّما مجيئه لأجل ما ذكرناه آنفاً.

ومن الجدير بالذكر أن صفة العدل والاحسان عند صلاح لا تُعدُّ ولا تُحصى. وفيما يذكر لنا التأريخ حين أراد أن يحرّر بيت المقدس عقد صلحاً مع أميرها ((بليان)) بالخروج منها بعد أن أيَّسَ من مجابهة صلاح الدين، فعرض السلطان صلاح الدين على ((بليان)) بأنّه يسمح لهم بالخروج من مدينة القدس في مدة أربعين يوماً على أن يدفع الرّجل عشرة دنانير وتدفع المرأة خمسة دنانير ويُدفع عن كل ولدٍ ديناران، ومن لم يدفع هذا المبلغ فهو أسيرٌ، فوافق بليان على ذلك ورجع إلى قومه وأطلعهم بذلك فرضوا تحت عامل اليأس، و مكث السلطان خارج المدينة، ولم يدخلها إلاّ بعد خروج الصّليبيين، وطلب الملك العادل من أخيه السلطان إعفاء سبعة آلاف من الفقراء الذين لم يكن باستطاعتهم دفع الفدية فوافق السلطان، كما وأعفى عشرة آلاف آخرين أيضاً. يقول المؤرخ ((استيفنسن)) بأنّ السّلطان سمح لعدد كبير منهم بالرّحيل بدون فدية، ويقول ((ستانلي لين بول)) إنّ أرنولد – وكان حاضراً وقت الحادثة – قد أخبره أنّ السلطان فتح الباب من شروق الشّمس حتّى غروبها لخروج الفقراء على حسابه الخاص، وسمح لرجال الدين وبقية الأهلين كافة أن يحملوا متاعهم دون أن يتعرّض سبيلهم أحدٌ، هكذا برهن السلطان بأعماله الجميلة علي علوّ همته وسموّ نفسه وكرمه وشفقته وعدالته، وعندما رأى أن بعض الشّيوخ والعجزة من الرجال والنساء لا يقدرون على المشي عند خروجهم من القدس أمر أن يُعدَّ لهم المراكب من الدَّواب، وكانت شفقته بالنساء أكثر، صادف أن كانت بينهم إحدى نساء الملك من ملوك الرّوم، عرفت بتقواها والتفاف خلق كثير حولها وكانت غنية فأمن السلطان على مالها وابتاعها وخرجت الملكة (سبيل) من القدس محترمة من قبل السلطان حيث أوصلها إلى نابلس عند زوجها الأسير، ويقال بأنّه صادف أن خرجت جماعة كثيرة من النّساء والشابات قالتْ إحداهنّ مخاطبة السلطان، أيّها السلطان العظيم أتدري إلى أين نحن ذاهبات إلى ما ندري نحن، لأنّ أزواجنا وأباءنا وإخواننا أسرى عندكم منذ معركة حطين فإلى أين نذهب دون معيل، فلمّا سمع السلطان قولها أمر بإطلاق سراح جميع رجالهنّ. هذه هي مآثر صلاح الدين الأيوبي ومعاملته الحسنة للإفرنج... قيل له إنّ البطريرك خرج بأمواله وذخائره وكانت كثيرة جدّاً ولم يصرف منها شيئاً في فداء الفقراء والمساكين كما يقول: ((ستانلي لين بول)) بعد أن وصف البطريرك بأنّه عديم الضمير والإنسانية لم لا تصادر هذه الأموال وتصرفها لتقوية المسلمين

فقال لهم السلطان: لا آخذ منه إلاّ عشرة دنانير ولا أغدر به ولا أنقضُ عهدي. ويقول: ((استانلي)) في هذا الصدد ((هكذا قد وصل الأمر إلى أنّ سلطاناً مسلماً يُلقي على راهب مسيحي درساً في معنى البرّ والإحسان)) (١).

ولعلّ هذا الجانب الشخصي والإنساني من شخصية صلاح الدين هو الّذي أكسبه المكانة المرموقة في التأريخ. فصلاح الدين هو قبل كل شيء رجل يتمتع بقيم الحضارة الّتي نشأ في كنفها، وهو المؤمن بالإسلام الذي يأمر بالعدل والإحسان(٢). وكذلك من إحسان الناصر صلاح الدين وبرّه وإحسانه وعدالته وسموّ نبله بعد أن وَصَلَ صلاح الدين من بيروت خمسةٌ وأربعون أسيراً من الافرنج، تحادث السلطان مع شيخ هرم من بينهم وسأله عن سبب مجيئه إلى بلاد الشام، فردّ الافرنجي قائلاً: ((وإنّما خرجت بقصد كنيسة القيامة لأظفر بالحج المبرور)). فما كان من السلطان صلاح الدين إلّا أن رقّ له ومنّ عليه بإطلاق سراحه، ((وقد أخرجه من ذلّ الرّق إلى عزّ العتاق وردّه إلى الفرنج راكباً على فرس، ولم ير قتله ولا أسره حيث رأى نفساً مرتهنةً بنفس)). كما منع السلطان بعض الشبان المسلمين من قتل الأسرى، ولما سُئِل عن سبب ذلك قال: ((لئلاّ يجترؤوا من الصغر على سفك الدم)) (٣). فإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على شهامة صلاح الدين وقيمه النبيلة في تحقيق العدل والإحسان حتى مع أعدائه. ولا تزال شخصية السلطان صلاح الدين تلوح في الأفق من حيث عدالته وأناته عند أدباء وكتاب وباحثين ومؤرخين غربيين، ومقارنته بأبطال المعارك عبر التأريخ، فيما يقوله بهذا الشأن المؤرخ ((رينو)) في كتابه المشهور الحملات الصليبية الذي صدر بباريز سنه (١٨٠٦م) في آخر الفترة النابليونية. إنّه يقول وهو قارن بين شخصية ريتشارد ((قلب الأسد)) وشخصية صلاح الدين: ((...كان صلاح الدين مطبوعاً على الوقار أكثر من ريتشارد ومؤهّلاً أكثر منه ليدير القتال... كان يُصرُّ في تنفيذ مشاريعه... فلم يتبوّأ عرش الأتابكة لميل فطري لذلك بقدر ما قدّر ذلك له. غير أنّه ما إن تبوّأه حتى استولى عليه حبّانُ حبِّ الملك وحبّ انتصار دين القرآن. أمّا ما عدى ذلك فلم يزل كثير الأناةِ يعجب الناس به ويعتبرونه أعدل المسلمين وأوعدهم إن لم يتعلّق الأمر

(١) نقلاً عن كتاب صلاح الدين الأيوبي أسد القارتين: ٦١، ٦٢، ٦٣. ينظر: صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس: ١٠٠، ١٠١.

(٢) صلاح الدين الأيوبي بمناسبة مرور ثمانمائة السنة على وفاته: ١٥.

(٣) الفتح القسّي في فتح القدس: ٤٧١.

بمملكة لابدّ فتحها أو بنبي المسلمين لابدّ من تمجيده)) (١) (٢). وكان عادلاً ينصر الضعفاء وكان يفرّغ نفسه كل يوم اثنين وخميس يجلس إلى البيت في قضايا الناس ويحضر هذا المجلس الفقهاء والقضاة والعلماء، وينتهي المجلس إلى البت بجميع القضايا التي تثبت عدله واهتمامه بقضايا المسلمين، وتثبت كرمه وعطاياه(٣).

وفيما يخص كرم السلطان صلاح الدين وسَخَاءَهُ ((...حاكت المصادرُ عدداً من القصص التي تدور حول كرمه وسخائه، نذكر على سبيل المثال إحداها يتعلّق بفارس فرنسيٍّ هو السيد ((دانكلور))، أنّ صلاح الدين أسّره ثم أطلق سراحه مؤقتاً ليجمع في وطنه المبلغ المقدّر لدفع فديته، فرجع السيد ((دانكلور)) بعد مدّة ليسلّم نفسه للأمير صلاح الدين بعد فشله في جمع الفدية، حينئذ ونظراً إلى إخلاصه ووفائه أعتقه صلاح الدين نهائياً، فوعده الفارس الفرنسي تخليداً لذكرى كرم الأمير المسلم بأن يسمّي كلّ ذكر بكر سيولد في ذرّيّته باسم صلاح الدين)) (٤). لو نقف قليلاً ونتدبّر كثيراً في هذا الأمر نجد أنّ الإسلام هكذا يصنع رجالاً يضعهم التأريخ للأجيال القادمة رمزاً للمروءة والشهامة والكرم والسّخاء والتسامح والإحسان.

نتائج البحث

لقد توصل البحث إلى جملة من النتائج الأساسية نوجزها فيما يأتي:

- قام الشعراء المخلصون بأداء مهامهم الملقاة على عاتقهم في رصد الأحداث بكلّ دقّة وأمانة، من خلال قصائدهم وأبياتهم الشعرية وفاءً منهم وتثميناً لنضال القائد الذي أدار معركة التحرير بكلّ جرأة واقتدار.
- كما أنهم لم ينسوا التضحية والفداء للأبطال المجاهدين الذين كانوا يخوضون غمار الحرب في سوح القتال مع قائدهم لتكون كلمة الله هي العليا، وكانوا يصوّرون أحداث هذه المعركة تصويراً دقيقاً حياً واقعياً بعيداً عن التصنع والتكلف، وخلّدوا تلك الأحداث وحافظوا عليها

(١) صلاح الدين الأيوبي بمناسبة مرور ثمانمائة السنة على وفاته: ١٤٢، ١٤٣.

(٢)

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: ١٣، ١٦، ١٧، ١٨. ينظر: صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي: ١٨٠، ١٨١.

(٤) نقلاً عن كتاب صلاح الدين الأيوبي بمناسبة مرور ثمانمائة السنة على وفاته: ١٣٢.

من الضياع كي تبقى وثيقة أدبية وتأريخية وتراثية للأجيال القادمة ليستلهموا منها الدروس والعبر، وبذلك أصبح شعرهم سجلاً حافلاً لهذا التراث العظيم.

- وهكذا ظلَّ الشعراء يسجّلون مآثر شخصية القائد المنقذ وجنوده البواسل في معركتهم المقدّسة ضدّ القوة الغاشمة المحتلّة للأراضي الإسلامية ومقدّساتها.
- كما كشف البحث عن اعترافات القادة الصليبيين بشجاعة وشهامة البطل صلاح الدين الأيوبي وقيمه النبيلة من العدالة والوفاء بالعهد والتسامح والإحسان وعدم الخيانة حتّى مع أعدائه، وهذه حقيقة قلّ نظيرها في تأريخ الحروب التي قادها أمراؤها في الماضي.
- لقد بدا واضحاً من خلال البحث أنّ الشعر الذي تناوله الشعراء تعبيراً عن هذا النضال المقدس بعيدٌ عن التكلف والتصنع والغموض، بل كان تعبيراً حياً صادقاً أميناً عذباً مرناً نابعاً عن الواقع الذي كانوا يعيشون معه حقيقةً.
- ومن الجدير بالذكر أنّ المفاهيم والمعاني التي يحتويها شعر هؤلاء الشعراء تختلف تماماً عن المضامين والمفاهيم التي يحتويها شعر غيرهم من الشعراء في الماضي، وذلك من حيث صنع الخيال في تصوير الواقع المتصنع بعيداً عن الحقّ والحقيقة.

المصادر والمراجع

- ❖ أدب الحروب الصليبية، عبد اللطيف حمزة، ط ١، الناشر دار الفكر العربي، ١٩٨٤م.
- ❖ تأريخ مختصر الدول، غريغور يوس الملطي المعروف بابن العنبري (ت ٦٨٤ هـ)، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥٨م.
- ❖ ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب، المرتضى بن عبد الرزاق الزبيدي، (ت١٢٠٥هـ)، تحقيق صلاح دين المغبر، دار أحياء الكتب العربية، ١٩٥٧م.
- ❖ التكملة لوفيان النقلة، زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، (ت٦٥٦هـ) تحقيق بشار عوار معروف، مؤسسة الرّسالة، ط ٢، بيروت، ١٩٨٨م.
- ❖ الحكم الأيوبي في الشرق الأوسط، صلاح الدين الشريف، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٧م.
- ❖ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، الدكتور أحمد أحمد البدوي، ط ١، مطبعة نهضة، مصر، الفجاله، القاهرة، (د. ت)

- خريدة القصر وجريدة العصر، عماد الدين الأصفهاني محمد بن محمد الكاتب، (ت ٧٩٧هـ)، تحقيق شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٦٨م.
- ديوان ابن جبير الاندلسي، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور منجد مصطفى بهجت، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ط١، ١٤١٩هـ -١٩٩٩م.
- ديوان ابن الساعاتي، بهاء الدين أبي الحسن علي بن رستم المعروف بابن الساعاتي، هردوز الخراساني، عني بتحقيقه، ونشره أنيس المقدسي، الطبعة الأمريكية، بيروت، ١٩٣٩م.
- ديوان ابن سناء المُلك (ت ٦٠٨ هـ) تحقيق محمد إبراهيم نصر، ومراجعة الدكتور حسين نصار محمد، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة، ١٩٦٩م.
- ديوان عماد الدين الأصفهاني، جمعه وحققه وقدّم له الدكتور ناظم رشيد، بمطابع جامعة الموصل، مديرية المطبعة العامة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
- ديوان فتيان الشاغوري، أبو محمد فتيان بن علي الأسدي، (ت ٦١٥هـ)، تحقيق أحمد الجندي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، (د.ت).
- رحلة إلى صلاح الدين الأيوبي، الأستاذ الدكتور محمد مؤنس عوض، ط ١، دار العالم العربي، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
- سنا البرق الشامي، قوام الدين الفتح بن علي البنداري (ت ٦٤٢هـ) وهو مختصر البرق الشامي، العماد الأصفهاني، تحقيق الدكتور رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط ١، ١٩٧١م.
- سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سوْرة،(ت ٢٧٩هـ) ، تخريج وترقيم وضبط صدقي جميل العطار ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت- لبنان ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .
- شعر الرشيد عبد الرحمن النابلسي: ص ١٣٣-١٣٥-١٣٦، جمع وتحقيق ودراسة د. مشهور الحبازي، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣، طبع من مطبعة المنار الحديثة، المؤسسة الفلسطينية، الإرشاد القومي، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣.
- الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد، من (٥٤٧ هـ - ٦٥٦ هـ)، عبد الكريم توفيق العبود، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.

- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، أحمد بن إبراهيم الحنبلي، (٨٧٦ هـ)، تحقيق ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨ م.
- صحيح المسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (ت ٢٦١ هـ)، تحقيق وتخريج أحمد زهوة وأحمد عناية، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠١٣ م.
- صلاح الدين الأيوبي أسد القارتين، أ، ب. هوري، أبوبكر جلال طه، مطبعة سلمان الأعظمي، بغداد، ١٩٦٧ م.
- صلاح الدين الأيوبي، بطل حطين ومحرر القدس، الدكتور عبد الله ناصح علوان، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع (د.ت).
- صلاح الدين الأيوبي بمناسبة ثمانمائة سنة على وفاته، الدكتور عمر تدمري ومجموعة من الباحثين، منشورات دار المقاصد الإسلامية، بيروت، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.
- صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه، الدكتور أحمد أحمد بدوي، الناشر دار القلم، ١٩٦٠ م.
- صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، الدكتور محمد رجب البيومي، ط١، الناشر دار القلم، دمشق، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.
- طبقات الشافعية الكبرى، تابع الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي، (ت ٧٧١ هـ)، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحود محمد الطناحي، دار أحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٧٠ م.
- الفتح القسي في الفتح القدسي، العماد الكاتب الأصفهاني، (ت ٥٧٩ هـ)، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥ م.
- فجر أمة صلاح الدين الأيوبي، الدكتور ياسر نصر، مكتبة الوفاء، ط ١، دار النشر للجامعات، مصر، القاهرة، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م.
- الكامل في التأريخ، عز الدين أبي الحسن علي أبي الكرم، محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٦ هـ – ١٩٦٦ م.
- كتاب الاعتبار، أسامة بن منقذ، حرّره فيليب حتى، مطبعة جامعة برستون ١٣٤٩ هـ.

❖ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة (ت ٦٦٥ هـ)، حققه وعلّق عليه إبراهيم الزيبق، ط ١، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، ١٩٩٧ م.

❖ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥ هـ)، تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد، مراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ١٩٦٢ م.

❖ مجلة المورد المجلد الثامن عشر، العدد الثاني، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٦ م.

❖ مجلة المورد المجلد السابع، العدد الثاني، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.

❖ المختصر في أخبار البشر، عماد الدين إسماعيل أبي الفداء (ت ٧٣٢ هـ)، ط ١، المطبعة الحسينية المصرية، ١٣٢٣ هـ.

❖ مرآة الجنان وعيون اليقظان في معرفة ما يعبر من حوادث الزمان، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي، (ت ٧٦٨ هـ)، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧ م.

❖ مرآة الزمان في تأريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو مظفر يوسف بن قذاو علي، (ت ٦٥٤ هـ)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الركن، الهند، ١٩٥١ م.

❖ معارك العرب ضد الغزاة، محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٥٧ م.

❖ مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت ٦٩٧ هـ)، حقّقه وعلّق حواشيه وقدّم له الدكتور جمال الدين الشيال، المطبعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٥٧ م.

❖ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلي، أبو المحاسن بهاء الدين ابن شداد (ت ٦٣٢ هـ)، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، ط ٢، الناشر مكتبة الخانجي، قاهرة، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

❖ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، أعدّ فهارسها رياض عبد الله عبد الهادي، ط ١، دار أحياء التراث العربي، مؤسسة التأريخ العربي، بيروت – لبنان، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

Findings of the Study

The study has reached a set of findings which can be summarized as follows:

- The sincere poets performed the tasks placed on their shoulders for observing events accurately and honestly through their poems and poetic verses in order to display their faithfulness and appreciation of the struggle of the leader who managed the battle of liberation daringly and competently.
- The sincere poets did not forget the sacrifice of the heroes and holy warriors who rushed into war on the fields of battle with their leader so that the Word of Allah was the highest. They would depict the events of that battle accurately, livelily, and realistically away from affectation and preciosity, and they immortalized those events and preserved them from being lost in order to remain a literary, historical, and heritage document for the coming generations so that they can draw lessons and feats from them. Thus, their poetry became a record which was replete with this glorious heritage.
- The poets continued to record morals of the personality of the leader, the saviour and his brave soldiers in their sacred war against the brute force which occupied the Islamic territories and sanctities.
- The study also revealed the acknowledgements of the Crusade leaders of the bravery and magnanimity of the hero, Salahaddin Al-Ayyubi and his noble has justice, fulfilment of a pact, tolerance, beneficence, faithfulness his enemies and this is a fact unparalleled in the history of wars led by their princes in the past.

References

- Literature of the Crusades, Abdul Latif Hamza, publisher: Al-Fikr Al-Arabi Publishing house, 1984 AD.
- History of Mukhtasar Al-Dowal, Gregor Yus Al-Malti, known as Ibn Al-Anbari (died in 684 AH), Catholic Publishing house, 1958 AD.
- Comforting the Hearts in Mentioning the Kings of Banu Ayyub, Al-Murtada bin Abdul-Razzaq Al-Zubaidi, (died in 1205 AH), edited by Salah Al-Din al-Mughbar, Ihya Al-Kutub Al-Arabi Publishing house, 1957 AD.
- The sequel to Lufyan al-Naqla, Zaki Al-Din Abd Al-Azim bin Abd al-Qawi al-Mundhiri, (died in656 AH), edited by Bashar Awar Ma'rouf, Al-Risala Foundation, 2nd edition, Beirut, 1988 AD.
- Ayyubid Rule in the Middle East, Salah Al-Din al-Sharif, Egyptian Nahda Library, Cairo, 1967 AD.
- Literary Life in the Era of the Crusades in Egypt and the Levant, Dr. Ahmed Ahmed Al-Badawi, 1st edition, Nahda Press, Egypt, Al-Fagala, Cairo, (D. T.)
- Kharidat Al-Qasir and Jaridat Al-Asr, Imad Al-Din Al-Isfahani Muhammad Bin Muhammad Al-Kateb, (died in 797 AH), edited by Shukri Faisal, The Hashemite Press, Damascus, 1968 AD.
- Diwan Ibn Jubayr Al-Andalusi, compiled, edited and studied by Dr. Munjid Mustafa Bahjat, Al-Rifai Publishing House for Publishing, Printing and Distribution, 1st edition, 1419 AH - 1999 AD.
- Diwan Ibn al-Saati, Bahaa al-Din Abi Al-Hasan Ali bin Rustum, known as Ibn Al-Saati, Harduz al-Khorasani, edited and published by Anis al-Maqdisi, American edition, Beirut, 1939 AD.
- Diwan Ibn Sana al-Mulk (died in 608 AH), edited by Muhammad Ibrahim Nasr, and edited by Dr. Hussein Nassar Muhammad, International Printing Company, Cairo, 1969 AD.
- Diwan Imad Al-Din al-Isfahani, compiled, edited and presented by Dr. Nazim Rashid, Mosul University Press, General Printing Press Directorate, 1404 AH - 1983 AD.
- Diwan Fatyan Al-Shaghouri, Abu Muhammad Fatyan Bin Ali Al-Asadi, (died in 615 AH), edited by Ahmed Al-Jundi, Publications of the Arabic Language Academy in Damascus.
- A Journey to Saladin Al-Ayyubi, Professor Muhammad Mu'nis Awad, 1st edition, Al-Alam Al-Arabi Publishing, 1433 AH - 2012 AD.

- Sana al-Barq al-Shami, Qawam Al-Din Al-Fath Bin Ali Al-Bandari (died in 642 AH), a summary of al-Barq al-Shami, al-Imad al-Isfahani, edited by Dr. Ramadan Shashan, Dar Al-Kitab Al-Jadid, Beirut, 1st edition, 1971 AD.
- Sunan al-Tirmidhi, by Abu Issa Muhammad Bin Issa Bin Sura, (died in 279 AH), compiled, numbered and edited by Sedqi Jamil al-Attar, Al-Fikr House for Printing, Publishing and Distribution, Beirut - Lebanon 1426 AH - 2005 AD.
- Poetry of Al-Rashid Abdul Rahman Al-Nabulsi: pp. 133-135-136, compiled, editted and studied by Dr. Mashhour Al-Habazi, 1st edition, 1424 AH - 2003, printed by Al-Manar Modern Press, the Palestinian Foundation, National Guidance, 1424 AH - 2003.
- Arabic poetry in Iraq from the Fall of the Seleucids until the Fall of Baghdad, (547 AH - 656 AH), Abdul Karim Tawfiq Al-Abboud, Al-Hurriya Printing House, Baghdad, 1396 AH - 1976 AD.
- Healing hearts in the virtues of Banu Ayyub, Ahmed bin Ibrahim al-Hanbali, (876 AH), edited by Nazim Rashid, the Ministry of Culture and Arts, Freedom Printing House, Baghdad, 1978 AD.
- Sahih Al-Muslim, by Imam Abu Al-Hussein Muslim bin Al-Hajjaj Al-Qushayri Al-Nisaburi, (died in 261 AH), edited and compiled by Ahmed Zahwa and Ahmed Enaya, Dar Al-Kitab Al-Arabi Publishing House, Beirut, 2013 AD.
- Salah al-Din al-Ayyubi, the Lion of the Two Continents, A and B. Hori, Abu Bakr Jalal Taha, Salman Al-Azami Press, Baghdad, 1967 AD.
- Salah al-Din al-Ayyubi, the hero of Hattin and the Liberator of Jerusalem, Dr. Abdullah Nasih Alwan, Dar Al-Salam for Printing, Publishing and Distribution.
- Salah al-Din al-Ayyubi on the Occasion of Eight Hundred Years since his Death, Dr. Omar Tadmuri and a group of researchers, Al-Maqasid Islamic Publishing House, Beirut, 1429 AH - 2008 AD.
- Saladin Al-Ayyubi among the Poets and Writers of his Time, Dr. Ahmed Ahmed Badawi, Al-Qalam Publishing House, 1960 AD.
- Salah al-Din al-Ayyubi, the Conqueror of the Crusader Aggression, Dr. Muhammad Rajab al-Bayoumi, 1st edition, Al-Qalam Publishing House, Damascus, 1418 AH - 1998 AD.

- The Great Shafi'i Classes, Tabi' Al-Din Abi Nasr Abd Al-Wahhab Bin Ali, (died in 771 AH), edited by Abd Al-Fattah Muhammad Al-Helu and Mahmoud Muhammad Al-Tanahi, Revival of Arab Books Publishing House, Cairo, 1970 AD.
- Al-Fath Al-Qasi in Al-Fath Al-Qudsi, Al-Imad Al-Katib Al-Isfahani, (d. 579 AH), edited, explained and presented by Muhammad Mahmoud Sobh, National House for Printing and Publishing, 1965 AD.
- Dawn of the Nation, Saladin Al-Ayyubi, Dr. Yasser Nasr, Al-Wafa Library, 1st edition, Al-Wafa University Publishing House, Egypt, Cairo, 1428 AH - 2007 AD.
- Al-Kamil in Al-Tarikh, Izz Al-Din Abi al-Hasan Ali Abi Al-Karam, Muhammad Bin Muhammad bin Abdul Karim Bin Abdul Wahid Al-Shaibani, known as Ibn Al-Atheer, Sader House for Printing and Publishing, Beirut, 1386 AH - 1966 AD.
- The Consideration Book, Osama Bin Munqidh, edited by Philip Hata, Preston University Press 1349 AH.
- Al-Rawdhatain in Akhbar Al-Dawlatayn Al-Nuriya and al-Salahiya, by Shihab Al-Din Abd Al-Rahman Bin Ismail Bin Ibrahim Al-Maqdisi Al-Dimashqi, known as Abu Shama (died in 665 AH), edited and commented on by Ibrahim al-Zaybak, 1st edition, Al-Resala Foundation for Printing, Publishing and Distribution, Lebanon, Beirut, 1997 AD.
- Al-Rawdhatain in Akhbar al-Dawlatayn Al-Nuriya and Al-Salihiyya, Shihab Al-Din Abd Al-Rahman Bin Ismail al-Maqdisi Al-Dimashqi (died in 665 AH), edited by Dr. Muhammad Hilmi Muhammad Ahmad, reviewed by Dr. Muhammad Mustafa Ziadeh, Egyptian General Foundation for Authoring, Translation, Printing and Publishing, Ministry of Culture and National Guidance, Cairo. 1962 AD.
- Al-Mawrid Journal, 18th Volume, 2nd Edition, 1409 AH - 1986 AD.
- Al-Mawrid Journal, 7th volume, 2nd edition, 1398 AH - 1978 AD.
- Al-Mukhtasar in Akhbar al-Bishr, Imad Al-Din Ismail Abi Al-Fida (d. 732 AH), 1st edition, Al-Hussaini Press of Egypt, 1323 AH.
- The Mirror of Heavens and the Eyes of Al-Yaqzan in Knowing What Passes Through the Events of Time, Abu Muhammad Abdullah Bin Asaad Bin Ali Al-Yafi'i, (died in 768 AH), annotated by Khalil

Mansour, Al-Kutub Al-Ilmiyyah Publishing House, Beirut, 1997 AD.

- Mirror of Time in the History of Notables, the tribe of Ibn al-Jawzi, Shams Al-Din Abu Muzaffar Yusuf Bin Qadhaw Ali, (died in 654 AH), Ottoman Encyclopedia Council Press, Hyderabad Al-Rukn, India, 1951 AD.
- Battles of the Arabs against the Invaders, Muhammad Amara, Arab Foundation for Studies and Publishing, Beirut, 1957 AD.
- Mufarrej Al-Kuroub fi Akhbar Bani Ayyub, Jamal Al-Din Muhammad Bin Salem Bin Wasil (d. 697 AH), edited and annotated by Dr. Jamal Al-Din al-Shayyal, American Press in Cairo, 1957 AD.
- Al-Nawadir Al-Sultaniyya wa Al-Mahasin Al-Yusufiyah, Yusuf bin Rafi bin Tamim bin Utba Al-Asadi Al-Mawsili, Abu Al-Mahasin Bahaa Al-Din Ibn Shaddad (died in 632 AH), edited by Dr. Jamal Al-Din Al-Shayyal, 2nd edition, published by Al-Khanji Library, Cairo, 1415 AH - 1994 AD.
- Wafat Al-Ayan wa Anbaa Abnaa Al-Zaman, by Abu Abbas Shams Al-Din Ahmad Ibn Muhammad Ibn Abi Bakr Ibn Khalkan, presented by Muhammad Abd Al-Rahman Al-Marashli, indexes prepared by Riyad Abd Allah Abd Al-Hadi, 1st edition, Arab Heritage Revival Publishing House, Arab History Foundation, Beirut - Lebanon, 1417 AH - 1997 AD.